أحمد بهاء الدين



مؤامرة فى افريقيا

مؤامرة فى افريقيا

بقلم
أحمد بهاء الدين

القاهرة ١٩٥٧

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

الغلاف تصميم « أبو العينين »

إهداء ...

إلى الضمير العالمى الذى قامت الأمم المتحدة لتمثيله ...

وإلى أبناء إفريقيا . . القارة التى ستدور فيها معركة الحرية الأخيرة . .

فمن أجل رسالة الأمم المتحدة ، ومن أجل حرية إفريقيا سُفك هذا الدم !

« أحمد بهاء الدين »

ستكون حياة هادئة ! ...

كان مندوب مصر فى مجلس الأمم المتحدة بالصومال يعبر الشارع أمام بيته ، فى العاصمة « مقديشيو » . . . وفجأة ، هجم عليه من الوراء رجل فى يده سكين طويل ، طعنه فى ظهره ، وظل يطعنه إلى أن سقط مضرجا بدمائه . . .

وتمكن بعض الذين رأوا الحادث من القبض على القاتل . أما مندوب مصر ، فقد كانت لديه بقية من قوة ، مد بها يده إلى الوراء ، وانتزع السكين المغروس فى ظهره . . . ولكنهم عندما وصلوا به إلى المستشفى ، كان قد أسلم الروح . . .

هكذا قرأت ــ كما قرأ الناس ــ مصرع كمال الدين صلاح . وما تعلم نفس بأى أرض تموت ! وما كان أحد يتصور أن يلقى كمال الدين صلاح مصرعه فى الصومال ، وهو يحمل اسم الأمم المتحدة ، ويمثلها فى إعداد شعب الصومال للاستقلال ...

كان واضحاً أن هذه ليست قضية قتل عادية ، من القضايا التى تقع كل يوم . . .

إن كمال الدين صلاح هو الرجل الثانى الذى استشهد وهو ينفذ رسالة الأمم المتحدة : الأول هو الـكونت برنادوت وقد قتلته إسرائيل . والثانى هو كمال الدين صلاح ، وقد قتله ... من ؟ ...

ثم إن هذا القتل قد جاء فى فترة غير عادية من حياة إفريقيا . فترة بدأ فيها العـالم كله يهتم بهذه القارة الغامضة ، ويتحدث عن الثروات الخرافيةالتى ترقد فى أرض غاباتها العذراء . . . فترة بدأ فيها أكبر ساسة الغرب « يتواضعون » ويأتون إليها ، كما كان يذهب المغامرون إلى « جزيرة الـكنز » ، كل واحد يريد أن يرى لمحة أو ينال شيئاً مما فى هذه القارة من كنوز . . .

فى هذه الفترة بالذات سقط كمال الدين صلاح مضرجاً بدمائه . وكمال الدين صلاح إفريقى . وهو ابن بلد من البـلاد التى ينبعث منها النور إلى إفريقيا . والصومال بلد إفريقى ، من البلاد التى حددت الأمم المتحدة لها موعداً حاسماً يجب أن تستقل فيه .. موعدا ليس ببعيد ، فى سنة ١٩٦٠ . . .

فليس من المصادفة قطعاً أن يلقى كمال الدين مصرعه فى هذه اللحظة

بالذات ، وبعد شهور قليلة فقط من نجاة بلاده ـ مصر ـ من جريمة قتل مشابهة ، فى بور سعيد ! . . .

فما سر هذه الجريمة ؟ . . .

كان هذا السؤال يتردد على لسان كل مصرى ، وكل مهتم بسياسة مصر ومستقبل إفريقيا . . .

ولم أكن أقل من الآخرين اهتماما بالعثور على إجابة لهذا السؤال.. حتى أتاحت لى الظروف فرصة نادرة .

لقد كان من عادة كمال الدين صلاح أن يدون مذكراته وخواطره ، وأن يحتفظ بها لنفسه. وقد ترك بعده كمية هائلة من الأوراق الخاصة ، والمسودات وقصاصات الصحف .. ثم هناك خطاباته التى كان يبعث بها إلى زوجته إذا كانت غائبة ، وإلى أصدقائه المقربين ..

وعندما أخذت أقلب هذه الأوراق .. وجدت أننى إنما أقرأ دراما رائعة ! دراما فيها كل أبطال القصص الكبيرة . فيها شخصية « الدكتور فرانسكا » الرجل الاستعمارى ، الفاشيستى القديم . وفيها شخصية « فيلبينى » السياسى المتنكر فى ثياب رجال الدين . وفيها

شخصية «جايبال» الهندى المحايد الأمين . وفيها شخصية « ادموندو » المواطن الذى باع روحه للشيطان ! .

نعم .. كنت أقلب هذه الأوراق وكأننى أقرأ دراما رائعة .. دراما تنتهى بمصرع البطل ! ولكن العبرة من مصرعه تبقى ، وتزدهر ! ..

وكان لا بد أن ترى هذه القصة النور . إن الصومال بلد إفريقى صغير ، ولكنه نموذج نادر للتيارات التى تصطرع فى إفريقيا كلها . وهو بلد مشمول بوصاية الأمم المتحدة ،ومن أجل ذلك فهو أيضا نموذج نادر لرسالة الأمم المتحدة والعقبات التى تصادفها . وكأن كمال الدين صلاح قد ألهم أن يترك هذه التركة من الأوراق لكى تكون صوتا مستمرا يرتفع فى إفريقيا وفى ساحة الأمم المتحدة !! .

***

فى ابريل سنة ١٩٥٤ ، كان السيد كمال الدين صلاح يقوم بعمله كقنصل لمصر فى مرسيليا ، عندما تلقى قرار الحكومة المصرية بنقله إلى الصومال .

ولم يكن هناك تمثيل سياسى لمصر فى تلك البلاد . ولكن مجلس الوصاية فى الأمم المتحدة كان قد شكل لجنة ثلاثية من مصر وكولومبيا والفلبين ، مهمتها أن تقيم فى الصومال الموضوعة تحت الوصاية ، وأن

تراقب عملية نقل الصومال من مرحلة الوصاية إلى مرحلة الاستقلال .

وابتسم كمال الدين صلاح وهو يقول لزوجته إنه فى أغلب الظن سيجد عملا هادئا فى ذلك الركن الهادىء من العالم . فقد كان حظه قبل ذلك عاصفا على الدوام ، لا يذهب إلى بلد إلا وهى تجتاز مرحلة خطيرة مضطربة من حياتها ، كأن فيه جاذبيـة خاصة للأحداث ، أو كأن حظه كان يبحث له عن مكان وقضية يستشهد فيهما !...

لقد بدأ حياته فى السلك السياسى بأن عين فى القدس سنة ١٩٣٦، والثورة الفلسطينية ضد الاحتلال الانجليزى الاسرائيلى فى أعلى مراحلها. ثم نقل إلى اليابان ، عند ما كانت الحرب اليابانية الصينية هى مشكلة العالم الأولى . ومن اليابان ذهب إلى بيروت ، إذ كانت الحرب العالمية ناشبة ، وجيوش حكومة ڤيشى تحتل لبنان وجيوش انجلترا و « فرنسا الحرة » تتهيأ لغزوها ، والمجاهدون العرب يفرون من قبضة الانجليز فى العراق وفلسطين و إيران إلى بيروت التى كادت تغلق عليهم كالمصيدة ، فدفعته سليقته ووطنيته إلى مساعدة هؤلاء اللاجئين ، حتى طلب لورد كيليرن من حكومة مصر أن تسحبه من لبنان بسبب نشاطه هذا ، فسحبته ، وأعادته إلى القاهرة حتى أشرفت الحرب على نهايتها . . .

وكانت الأنظار قد بدأت تتجه إلى سان فرنسيسكو التى اختيرت لمحاولة وضع أول ميثاق للأمم المتحدة بعد الحرب ، وصدر قرار بنقله إلى سان فرنسيسكو . وفجأة وقع حادث اغتيال رئيس الوزراء المرحوم أحمد ماهر . واعتقل فى هذا الحادث قريب له وصديق هو فتحى رضوان. وذهب كمال الدين صلاح يوما يسأل عن قريبه ويزوره فى السجن ، فألقوا القبض عليه من باب الاشتباه ، وفتشوا بيته ، ووضعوه فى السجن يوما وليلة ، قبل أن تتبين حكومة النقراشى حماقة ما فعلت فتطلق سراحه . .

ويلغى نقله إلى سان فرنسيسكو وينقل بدلا منها إلى اليونان ، ليشهد هناك الحرب الأهلية بين الحكومة والشيوعيين . ومن اليونان ينقل إلى عمان ، ليشارك من هناك فى الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل . ثم إلى تشيكوسلوفاكيا ليحضر فترة الانقلاب الشيوعى هناك . ثم إلى دمشق ليشهد أعصب أيام حكم الشيشيكلى واصطدامه بالشعب السورى ، ثم يأخذ هدنة فى ستوكهلم ريثما تقوم الثورة فى مصر ، فتنقله قنصلا فى مرسيليا فى سنة ١٩٥٣ . وكانت مرسيليا فى ذلك الوقت مركزا هاما من مراكز نشاط الثوار الجزائريين . وكان

الفرنسيون يرمقون كل مصرى رسمى أو غير رسمى بنظرة شزراء خشية أن يكون ممن يقدمون مساعدات للثوار . وكان لا بد أن يصطدم بهم كمال الدين صلاح لهذا السبب أكثر من مرة ..

مرّ هذا الشريط الهائل الذى يبلغ طوله ١٨ سنة برأسه فى دقائق قليلة . وهو يبتسم قائلا إنه أغلب الظن سيحيا فى الصومال حياة هادئة . فالصومال بلد صغير فقير ، لم يعرف العالم عنه أنه يثير مشا كل من أى نوع . وهو موضوع تحت وصاية الأمم المتحدة لمدة عشر سنوات تنتهى سنة ١٩٦٠ يصبح بعدها مستقلا . والدولة التى تتولى الإدارة فى الصومال تحت إشراف الأمم المتحدة ريثما يستقل هى إيطاليا ، وهى لم تعد دولة استعمارية تثير المتاعب منذ صفيت امبراطوريتها الافريقية فى الحرب الثانية : ثم إنه ليس ذاهبا هذه المرة بوصفه ممثلا لمصر . إنه يحمل صفة أخرى هى أنه ممثل للأمم المتحدة . هيئة نبيلة مستقلة محايدة ، مترفعة عن الأغراض ، لا يهمها إلا أن يتهيأ هذا الشعب للاستقلال فى الموعد المضروب ...

نعم .. ستكون حياة هادئة ..

ولكن ما هو بالضبط نظام الوصاية ، وما هو وضع ممثل الأمم المتحدة هناك ؟ ...

قبل الحرب العالمية الثانية كان هناك نظام « الانتداب » ، الذى لم يكن فى الواقع أكثر من اسم مهذب للاستعمار . كانت سوريا ولبنان مثلا تحت الانتداب الفرنسى وكانت فلسطين تحت الانتداب الإنجليزى ، ومع ذلك فقد كان الشعب العربى فى هذه البلاد الثلاثة فى ثورات دامية متصلة ضد انجلترا وفرنسا بوصفهما دولتين استعماريتين. فلما نشبت الحرب العالمية الثانية ، ومن خلال أحداثها ووعودها ، بدا أن الشعوب المستعمرة سوف يبزغ عليها بعد الحرب فجر جديد . فجر لم يأت إليها سهلا ، إنما جاءها بعد أن بذلت فى سبيله الدم والدموع . وفى مؤتمر يالتا ، حيث اجتمع روزفلت وتشرشل وستالين ، اتفق الثلاثة فيما اتفقوا عليه من تنظيم العالم وهيئة الأمم بعد الحرب ، على أن « تتشاور الدول الخمس التى سيكون لها مقاعد دائمة فى مجلس الأمن فى شأن مسألة الوصاية الإقليمية قبل انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة ... »

ولما انعقد مؤتمر سان فرنسيسكو لوضع ميثاق الأمم المتحدة ، ولد مبدأ عالمى جديد ، هو : أن الشعوب المستعمرة والمتخلفة مسئولية من مسئوليات المجتمع الدولى كله . وأن العلاقة بين الدولة المستعمرة والدولة الخاضعة للاستعمار ليست علاقة خاصة بينهما ، إنما هى علاقة عامة ، من

حق الأمم المتحدة ومن واجبها كممثلة للمجتمع الدولى أن تتدخل فيها ...

واتفق على تقسيم البلاد غير المستقلة إلى نوعين : النوع الأول هو المستعمرات بوجه عام . والنوع الثانى هو : المستعمرات التى كانت خاضعة لنظام الانتداب قبل الحرب، والمستعمرات التى كانت تستعمرها « دول الأعداء » .. أى المانيا أو إيطاليا أو اليابان ..

هذا النوع الثانى هو الذى تقرر وضعه تحت الوصاية .

وإذاً .. فمن حق الأمم المتحدة أن تتدخل بصفة عامة فى علاقة المستعمرات بوجه عام بمستعمريها ، إلا أن لها هيمنة خاصة على القسم الموضوع تحت الوصاية. فالأمم المتحدة هى التى تشرف على إدارة الإقليم المشمول بالوصاية . ومن أجل ذلك فقد نص ميثاق الأمم المتحدة على تكوين جهاز خاص من أجهزتها يتفرغ لهذه المهمة، ذلك هو «مجلس الوصاية » .مهمته أن يراقب إدارة الدولة الوصية للبلد المشمول بالوصاية ، وأن يتلقى تقريرا سنويا من هذه الإدارة ، وأن يفحص العرائض التى قد تقدم إليه من البلد المشمول بالوصاية، وأن يرسل بعثات دورية تزور هذه الأقاليم . والوصاية على أى بلد لها هدف واضح محدد لا يحتمل التحايل ، ذلك هو : إعداد الشعب الموضوع تحت الوصاية للاستقلال الكامل ، طبقا لمعاهدة محددة .

والبلاد المشمولة بالوصاية عبارة عن ١١ بلد، أغلبها فى افريقيا، هى :

الـكاميرون ، وعدد سكانها ١ر٤٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها انجلترا
توجولاند ، وعدد سكانها ٤١٠ر٠٠٠ والوصية عليها انجلترا
تنجانيقـا ، وعدد سكانها ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها انجلترا
الـكاميرون ، وعدد سكانها ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها فرنسا
توجولاند ، وعدد سكانها ١ر١٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها فرنسا
راوندا أوروندى، وعدد سكانها ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها بلجيكا
الصومال ، وعدد سكانها ١ر٣٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها إيطاليا
ساموا الغربية ، وعدد سكانها ٨٥ر٠٠٠ والوصية عليها نيوزيلندا
ناورو ، وعدد سكانها ٤٠٠٠ والوصية عليها استراليا
غينيا الجديدة ، وعدد سكانها ١ر٢٠٠ر٠٠٠ والوصية عليها استراليا
جزر الباسفيك، وعدد سكانها ٦٠ر٠٠٠ والوصية عليها الولايات المتحدة الامريكية .

على أن طريقة تشكيل مجلس الوصاية تستوقف النظر حقاً ! . . فهو يتكون على النحو الآتى :

أولا ـ الدول التى تقوم بالوصاية على هـذه الأقاليم (وهى انجلترا

وفرنسا و بلچيكا واستراليا ونيوزيلندا وأمريكا) .

ثانيا ـ الدول ذات المقاعد الخمس الدائمة فى مجلس الأمن (وهى انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا والصين) .

ثالثا ـ عدد آخر من الدول ، يكفى لكى يصبح عدد الدول الأعضاء التى لاتقوم بالوصاية مساوياً للدول الأعضاء التى تقوم بالوصاية .

فتطبيقاً للبندين الأول والثانى أصبح أعضاء أول مجلس : انجلترا وفرنسا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندا و بلچيكا وروسيا والصين ، ولما كان ستة من هذه الدول يقومون بالوصاية على بعض الأقاليم ، ودولتان فقط هما روسيا والصين لا تقومان بأى وصاية ، فقد وجب تعيين أربع دول أخرى أعضاء فى المجلس حتى يكون عدد كل من الدول الوصية والدول غير الوصية . . ست ! . . فإذا تغير عدد الدول الوصية تغير بالتالى عدد الدول غير الوصية احتفاظاً بالمساواة العددية .

ما سر هذا التشكيل البالغ التعقيد ؟ ...

أغلب الظن أن الدول الوصية ، وهى الدول القوية ، خرصت على الاحتفاظ لنفسها بنصف عدد الأعضاء ، حتى لاتصدر القرارات ضد

مصلحتها . ومعنى ذلك أن الدولة الوصية لا تحب أن تسلم سريعاً بضرورة إنهاء وصايتها أو الإسراع بإعداد الإقليم التابع لوصايتها للاستقلال . . . فهاهنا إذا مجال كبير للمناورات ! . . .

كان هذا أول إنذار للمسافر إلى الصومال بأن مهمته لن تكون شديدة السهولة كما تصور أول الأمر . . .

وركب كمال الدين صلاح الطائرة إلى مقديشيو ، عاصمة الصومال..

ولم تمض أسابيع قليلة حتى حدث أمر عجيب . لقد وقع كمال الدين صلاح فى حب هذا الشعب الصغير الفقير ، كما وقع هذا الشعب الصغير الفقير فى حب كمال الدين صلاح ! . . .

هذا المصرى الذى ذهب إلى تلك البلاد الإفريقية لم يشعر بأنه غريب . فهذه هى قارته . وهذه البلاد كانت ترزح تحت الاستعمار كما كانت ترزح بلاده . وفى تاريخ مصر القديم أن التجار المصريين كانوا يذهبون إلى الصومال ويتاجرون معها منذ أربعة آلاف سنة ، وكانوا يسمونها « بلاد البنط » . ثم إن الشعب هنا كله مسلم ، واللغة المفضلة لديه هى اللغة العربية ولهجاته المحلية فيها كثير من الكلمات المصرية القديمة . . أما الصوماليون ، فقد وجدوا فيه كذلك إفريقيا مثلهم ..

نعم إنه يمثل الأمم المتحدة ، ولـكنه من دينهم ومن جنسهم ومن قارتهم . . . فهم يطمئنون إليه و يفتحون قلوبهم له و يعتبرونه واحدا منهم ، يقاسمهم حياتهم ومستقبلهم ومشاكلهم ... وهم يجدون فى البلد التى جاء منها ـ مصر ـ البلد الإفريقيـة التى استطاعت أن تتحرر وتستقل وتصبح دولة مرموقة متحضرة،فهى صورة معبرة للأمل المفتوح أمام الإفريقيين جميعاً ...

إننا نجد صدى هـذا اللقاء النفسى العميق ، فى الرسائل الأولى التى كتبها كمال الدين صلاح إلى أصدقائه وذويه « . . . قمت بجولة فى أنحاء الصومال دامت أسبوعين ، قطعت خلالها ثلاثة آلاف ميل بسيارة جيب ! اجتزت خلالها أراض صحراوية وغابات استوائيةومناطق زراعيـة ومراعى ! . . لقد اختلطت خلال هـذه الرحلة بالأهالى ، وتحدثت إليهم ، وصليت معهم فى المساجد ، وخطبت فيهم شارحا وضع بلادهم والدور الذى يجب أن يقوموا به ليحققوا استقلالهم والدور الذى تقوم به الأمم المتحـدة لمساعدتهم ، إن الناس هنا فى حالة فقر شديد . كثيرون منهم يعيشون على الفطرة كيوم هبط جـدنا آدم

إلى الأرض . وعشرات الألوف فى الغابات والمراعى شبه عرايا ليس على أبدانهم سوى ما يستر عوراتهم ، ويأكلون مما يحصلون عليه من صيد الغابة وألبان الإبل والأبقار والأغنام . وفى المناطق الصحراوية والمراعى يبيت الناس فى العراء ، وقد يكون لسلطان القبيلة أو زعمائها أكواخ من القش وفروع الأشجار . حتى العاصمة نفسها ، نجد أن أحياء الوطنيين فيها فقيرة كئيبة . ورغم أن هناك مساحات واسعة من الأراضى الصالحة للزراعة فإن أغلبية الناس منصرفون عن الزراعة . فهم لا يعرفون طرق الزراعة ، وهم يعجزون عن مجاراة الإيطاليين الذين يزرعون المناطق القريبة من النهرين بالآلات الحديثة . ويظن الناس هنا أن الزراعة غير ممكنة إلا بالجرارات والمحاريث والطلمبات الآلية التى يستعملها الإيطاليون .. فهم لا يعرفون الوسائل البسيطة التى يتبعها الفلاح المصرى كالمحراث والساقية والشادوف . ولكن هؤلاء الفقراء الذين يسكنون العراء ويأكلون من صيد الغابات يتقدمون فى فهمهم السياسى والقومى بشكل عجيب ! ففى أقصى الغابات نجد واحدا عنده « راديو بطارية » يسمع منه الآخرون نشرات الأخبار ! لقد وجدتهم يعرفون أخبار مصر معرفة دقيقة . . . إنهم يتتبعون معاهدة الجلاء ،

والحلف العراقى التركى ، وسفر جمال عبد الناصر إلى مؤتمر باندونج الذى يتكون من الشعوب الآسيوية والافريقية . إنهم يتعلقون بمصر تعلقا شديداً و ينتظرون منها أن تساعدهم ! » .

لقد عاش الاستعمار فى هذه البلاد عشرات السنين دون أن يصنع لها شيئا ! ولكن الإدارة الإيطالية هذه المرة مؤقتة ، ستنتهى سنة ١٩٦٠ . ثم إنها خاضعة للأمم المتحدة . والأمم المتحدة لها رسالة أخرى غير رسالة الاستعمار . رسالتها أن تنقل هذا الشعب إلى مستوى حضارة القرن العشرين ، وأن تعلمه كيف يحكم نفسه وكيف يشارك سائر الشعوب جهادها التقدمى !..

أما إذا كانت هناك مناورات من الدول الاستعمارية فى هذه الأرض الفقيرة الصغيرة ، فإن رسالته أيضا ، كممثل للأمم المتحدة ، أن يقف فى وجه هذه المؤامرات ... فترى ، ماذا هناك ؟ ...

صـراع الأقوياء ..

بعد وصول كمال الدين صلاح بشهور ، أرسلت هيئة الأمم المتحدة بعثـة من رجالهـا ، كى تزور البلاد الموضوعة تحت الوصاية فى شرق إفريقيا . . .

وكانت البعثة تتـكون من ثلاثة : رئيس نيوزيلندى ، وعضو أمريكى ، وعضو هندى ... اسمه مستر چاپبال . . .

وعند ما وصلت البعثة إلى الصومال ، وبدأت تمارس دراساتها هناك . . . بدأ كمال الدين صلاح يعرف الأعضاء الثلاثة عن قرب ، وبدأت التيارات السياسية المختلفة تظهر أمامه . .

وفى إحدى الليالى ، سأل الرئيس النيوزيلندى مستر چاپبال العضو الهندى : أين سيسهر الليلة ؟ فقال له مستر چاپبال : سأتعشى عند مندوب مصر ، السيد كمال الدين صلاح . .

وتغير وجه الرئيس النيوزيلندى ، وقال بلهجة ذات مغزى : إنه يلاحظ توثق العلاقات بين مستر جاپبال وكمال الدين صلاح وتعدد

مقابلاتهما . . . فضحك مستر جايبال قائلا : إننى أتآمر مع صديقى المصرى على تصفية ما تبقى من الامبراطورية البريطانية ! . .

وضحك الرئيس النيوزيلندى ضحكة صفراء . . . فالرئيس النيوزيلندى لم يأت مع عضوى البعثة من نيويورك رأسا ، ولكنه سبقهما إلى لندن ، حيث قابل المسئولين فى وزارة المستعمرات البريطانية ، قبل أن تتوجه البعثة إلى إفريقيا . . . وهو بالتأكيد لا يرتاح إلى مثل هذه الدعابة . .

أما العضو الأمريكى ، فإن أول أسئلة وجهها بعد وصوله كانت عما إذا كان هناك نشاط شيوعى فى الصومال ! فلما عرف أنه ليس هناك نشاط شيوعى على الإطلاق ، سأل عن احتمالات تسرب أى نشاط شيوعى فى المستقبل إلى هذه البلاد . وهنا قال له كمال الدين صلاح : إن هناك وعى واضح بين الأهالى ، يتطور بسرعة نحو المطالبة بحقهم فى أن يعيشوا فى بلادهم كآدميين . . أما إذا استمر الوضع كما هو الآن بأن يظل الإيطاليون الذين توطنوا منذ العهد الفاشستى هم المسيطرون على أفضل مناطق الزراعة ، وهم المالكون للصناعات القليلة القائمة ، وهم المحتكرون للأسواق التجارية فإن هذا لن يؤدى إلا إلى وقوع الانفجار ذات يوم . . .

***

فى هـذا الميدان بالذات ، ميدان الإقتصاد والسياسة ، وجد كمال الدين صلاح كل التيارات المتضاربة تزمجر فى سماء هـذا الشعب الصغير. وليس هـذا غريباً . فالمصالح الاقتصادية هى الغاية الأخيرة لـكل تدخل أو استعمار .

وليست دولة واحدة هى التى تبحث عن مصالح لهـا فى هـذه البلاد . . .

إن انجلترا وفرنسا و إيطاليا وأمريكا والحبشة ... كلها لهـا مصالح فى هذا البلد الصغير الفقير ! . .

إن مستر جايبال مندوب الهند فى لجنة الأمم المتحدة ، بعد أن زار مع اللجنة قلب إفريقيا وشرقها ، يقول لـكمال الدين صلاح : إنه قد تأكد من مناقشاته واتصالاته مع أعضاء البعثة ومع الحـكام المسئولين فى هـذه المستعمرات الإفريقيـة أن انجلترا وفرنسا و بلچيكا تتمنى ، وتعمل ، على فشل تجربة الوصاية فى الصومال الإيطالى وعدم إعلان استقلال الصومال فى سنة ١٩٦٠ .

لماذا ؟ . . .

إيطاليا . . من الطبيعى أن تتمنى فشل تجربة الوصاية ، حتى

يؤجل الاستقلال وتستطيع أن تبقى هناك بعد سنة ١٩٦٠ . أما بلچيكا وفرنسا وانجلترا فكلها دول لها مستعمرات مماثلة ومجاورة فى قلب إفريقيا .ونجاح تجربة الوصاية فى الصومال الإيطالى و إعلان الاستقلال معناه أن تمتد عدوى الاستقلال إلى هذه المستعمرات ، أو أن تطبق فيها تجربة الوصاية على الأقل . وهى لا تريد أن تمتد هذه العدوى إلى الصومال الانجليزى أو الصومال الفرنسى أو الكونغو البلچيكية . إنها تعرف أن إضاءة مصباح واحد فى الصومال الإيطالى سوف يجمع الأحرار فى هذه البلاد كلها حول نوره ، وأن لمحات من نور هذا المصباح سوف تمتد وتبدد شيئا فشيئاً ظلام الغابات فى قلب القارة السوداء . . . وكلما تبدد الظلام كلما أصبح بقاء الاستعمار والاستغلال أكثر صعوبة . . . ثم هناك الحبشة .. الدولة الوحيدة المستقلة المجاورة ، ولها فى الصومال مطامع ، وعلى الحدود تثور مشاكل وخلافات . وأخيرا هناك الولايات المتحدة الأمريكية ، ذات الاهتمام الطارىء الجديد بإفريقيا ، كجزء من استراتيجيتها العسكرية والإقتصادية التى تشمل العالم كله .

ومعنى هذا أن هذه الدول تتفق أحيانا وتصطدم أحياناً أخرى ، تبعاً لالتقاء مصالحها أو تناقضها ... الأمر الذى يجعلنا فى حاجة إلى كثير من الصبر والتأمل لـكى ندرك كل التعقيدات التى ينطوى عليها الموقف. وهى التعقيدات التى تجعل من الصومال حالة نموذجية للشعب الصغير الفقير عند ما يتزاحم حوله الأقوياء . . .

ولنبدأ بإيطاليا ...

لقد ظلت إيطاليا منذ أيام العصر الفاشيستى تدير شئون الصومال كما تدار شئون أى مستعمرة من الطراز القديم : المطلوب هو اعتصار موارد البلاد بقدر الإمكان لحساب قلة من الرأسماليين والمستعمرين الإيطاليين . فأهمية الربح لهؤلاء تأتى قبل أهمية تحقيق أى ربح آخر ، حتى لإيطاليا نفسها كدولة .. أما العمل على تحسين أحوال الأهالى فهو أمر لا يفـكر فيه أحد بالطبع !

وقد خرجت إيطاليا من الصومال خلال الحرب العالمية ، وعادت بعـد الحرب لتتسلم الوصاية . ولـكن الوضع الاقتصادى بالذات ظل كما هو: فالزراعة ، والصناعة القليلة ، والتجارة كلها يحتكرها الإيطاليون، فى حين ظل أغلب الصوماليين يعملون فى الرعى وبيع المواشى ،

والزراعة البدائية المشتتة . حتى الدكاكين نجد أن أغلب أصحابها ليسوا صوماليين . .

والوسائل التي اتبعت لايجاد هذا الوضع كثيرة : فالطرق مثلاً لا تمد إلا إلى المناطق التي يزرعها الإيطاليون ، وعمليات الإقراض والائتمان لاتتم بسهولة إلا بالنسبة للإيطاليين . وعمليات التجارة الهامة تعطى احتكاراً للإيطاليين . . . حتى السياسة الضرائبية تساهم في إقرار هذا الوضع : فالضريبة على الكماليات المستوردة ـ المستوردة من إيطاليا ـ والتي لا يستعملها سوى أبناء الجاليات الأجنبية ضريبة بسيطة ، في حين أن ضريبة الاستيراد على السلع الضرورية التي يستهلكها الصوماليون أساساً باهظة جداً . الضريبة على السكر مثلا تصل إلى ١٢٥٪ وذلك لغرضين: الأول هو الحصول على أكبر إيراد ممكن من الصوماليين ، والثاني هو حماية صناعة السكر المحلية ، وهي صناعة يملكها الإيطاليون . . .

ونفس الحال بالنسبة لضرائب التصدير . فالموز الذي يحتكر الإيطاليون تصديره تفرض عليه ضريبة بسيطة لأن هذا يساعد على تصريفه في الخارج بأسعار معقولة . . أما السلع التي ينتجها الصوماليون أنفسهم مثل الجلود والحبوب والبخور فالضريبة على تصديرها باهظة . . .

فلا يهم الإدارة الإيطالية أن يتم تصريف هذه البضائع ، إنما يهمها أن تحصل على أكبر حصيلة من ضريبتها التى يدفعها الصوماليون !

وليس هناك بعد ذلك أى محاولة جدية لرفع مستوى الأهالى أو لتعليمهم طرقاً حديثة لاستثمار ثروتهم . . . بل إن الجهود على العكس كانت تبذل لإبقاءهم فى حالة من البدائية والتخلف تمنعهم من الثورة أو الاحتجاج . .

تروى السيدة حرم المرحوم كمال الدين صلاح أنها كانت فى الصومال عندما وقع الهجوم الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى على مصر . وقد أدى هذا الهجوم إلى إغراق بعض السفن فى قناة السويس وتعطيل الملاحة فيها ، مما أوقف حركة تصدير الموز من الصومال إلى الخارج ، وهى تجارة يحتكرها الإيطاليون . ولما كان بقاء الموز فى السفن والموانى لايؤدى إلا إلى فساده ، فقد كان المصدورن يتخلصون منه بإلقائه فى الماء أو فى الشوارع . وكان الأهالى يأخذون الموز لكى يأكلوه ويسدوا به حاجتهم . . . وفى سذاجتهم وطيبتهم كانوا يدعون الدعوات الطيبة لجمال عبد الناصر لأنه أمم قناة السويس فجعلهم يستطيعون أكل الموز بأسعار رخيصة ! . . .

فإلى هذا الحد يحرم الاحتكار هذا الشعب الصغير من محصوله الطبيعى

الأوفر ، و يبقيه فى هذه الحالة من الفقر والتخلف . . .

على أن إيطاليا ، بعد أن ذاقت الهزيمة فى الحرب العالمية ، وأبعدت عن الصومال زمناً ، عادت إلى هناك لكى تجد لها غريماً خطيراً . . .

هذا الغريم هو انجلترا . . .

إن الصومال مهم الآن بالنسبة لانجلترا لأكثر من سبب . فهو أولا ملاصق للصومال الانجليزى ، وأهالى الصومال هنا وهناك فى الواقع عبارة عن شعب واحد قسمه الاستعمار إلى انجليزى وفرنسى و إيطالى . فمستقبل شعب الصومال الإيطالى سوف يؤثر حتما فى مستقبل الصومال الإنجليزى . والصومال الإنجليزى ليس مهما لذاته فقط ، ولكنه جزء من الامبراطورية الإفريقية التى تعتبر الآن الاحتياطى الحقيقى الأخير للامبراطورية البريطانية بعد أن تزعزعت قواعدها وكادت تصفى فى آسيا وحوض البحر الأبيض وشمال إفريقيا . وهذه المنطقة التى توجد فيها الصوماليات الثلاث ، تقع فى مواجهة عدن ، المستعمرة الإنجليزية أيضا ، وتسيطر معها على مدخل البحر الأحمر المؤدى إلى المحيط الهندى . . .

كل هذه أسباب قوية لكى تهتم انجلترا بالصومال الإيطالى . يضاف إلى ذلك كله أن انجلترا خلال اشتباكها مع قوات إيطاليا

الفاشستية فى الحرب العالمية الأخيرة ، استطاعت أن تطرد قوات إيطاليا من الصومال كما طردتها من الحبشة . واحتلت انجلترا الصومال احتلالا عسكريا منذ سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٥٠ ، أى ثمانى سنوات متواليات . . .

فى خلال هذه السنوات الثمانى ، راودت انجلترا رغبة خفية أن تحل محل إيطاليا فى هذه البلاد [ألم تحل محل المانيا وتركيا فى مستعمراتها الإفريقية والآسيوية بعد الحرب العالمية الأولى ؟] . وكانت تتمنى أن تعهد إليها الأمم المتحدة بالوصاية على الصومال مدة السنوات العشر المقررة، فلعلها بذلك تستطيع أن توحد بين مصير الصوماليين الإنجليزى والإيطالى فى صومال واحد يرتبط أساسا بمصالح انجلترا . وأرادت انجلترا أن تعطى الصوماليين شيئا كانت إيطاليا تأباه عليهم ،فسمحت بتكوين الأحزاب ، وتكونت الأحزاب ، وكان أهمها وأقواها « حزب وحدة الشباب الصومالى » .

على أن الأمم المتحدة عندما بحثت هذا الأمر مع الشعب الصومالى نفسه ، وأرسلت بعثة منها إلى الصومال لتتحرى رغبته ، آثر الصومال وصاية إيطاليا . فالإدارة الإيطالية كانت لها جذور قديمة فى البلاد .

والمصالح الإيطالية كانت باقية لم تخرج من الميدان . وقد لعبت الدور الأساسي فى المطالبة بإعادة إيطاليا جماعة تحمل اسم « جماعة المحاربين القدماء » .

هذه الجماعة عبارة عن حوالى ٣٠ ألف صومالى ، كانوا خلال الحكم الإيطالى جنودا جندتهم إيطاليا لحفظ الأمن ، أو للقتال ضمن جيوشها فى حروب استعمارية أخرى فى الحبشة وأريتريا والصومال الإنجليزى وليبيا ... فلما غزا الإنجليز البلاد ، وطردوا قوات إيطاليا ، تفرق هؤلاء المجندون . ولكن الحكم الإنجليزى ـ كما يقول كمال الدين صلاح فى مذكراته ـ « ظل ينظر إليهم نظرة غير طيبة باعتبار أنهم حاربوا فى صفوف العدو . وفى الوقت الذى فتح فيه الإنجليز أبواب الوظائف لكل طوائف الصوماليين ، بقى هؤلاء المحاربون القدامى مبعدين محرومين من أى فرصة للالتحاق بأى عمل حكومى أو شبه حكومى . فلما ذهبت الأمم المتحدة تتقصى رغبة أهالى البلاد ، استطاع الإيطاليون أن يستغلوا سخط هؤلاء المحاربين القدماء . فهم تربطهم إلى حد ما رابطة الولاء للعلم الإيطالى الذى حاربوا تحته . ونفوسهم تفيض بالمرارة والحقد على الإنجليز . وقد جعلتهم كثرتهم العددية قوة لها أثرها ، كما أن اعتيادهم النظام وطاعة رؤسائهم من صف

الضباط من بنى جنسهم جعل من السهل حشدهم وتوجيههم . و بقليل من العطاء ، وكثير من الوعود ، كسبت إيطاليا فى تلك الفترة هؤلاء المحار بين القدماء إلى جانبها . فنظموا أنفسهم وساروا فى العاصمة والمدن فى مظاهرات ضخمة تدعو إلى عودة إيطاليا ، كما طالبوا بذلك أمام لجنة الأمم المتحدة .... »

يضاف إلى هـذه الأسباب التى نفرت الشعب الصومالى من الانجليز سبب آخر هو أن انجلترا أثبتت أن رغبتها فى إرضاء الحبشة أكبر من رغبتها فى إرضاء شعب الصومال . فالحبشة و إمبراطورها حلفاء قدامى للإنجليز ضد إيطاليا . و بين الصومال والحبشة خلافات حول بعض منـاطق الحدود . خصوصا منطقتى « الأوجادين » و « الهود » . وقد انتهزت انجلترا فرصة كونها هى الدولة المحتلة ، فسلمت منطقة الأوجادين لحـكومة الحبشة ، مما أثار ثائرة الصوماليين عليهـا وعلى الحبشة معا .

كل هذه الأسباب جعلت انجلترا تخرج من الصومال كما جعلت إيطـاليا تعود . . تعود لمدة الوصاية فقط ، أى من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ . ولـكن إيطاليا عادت وقد أصبح لانجترا جذور ومطامع وأنصار . وهى

لم تعد بسلطة مطلقة كالتى كانت لهـا أيام الفاشيست إنمـا عادت بسلطة مقيدة بقيود الوصاية ، فـكان لا بد أن يدور الصراع الظاهر حيناً والخفى حيناً آخر بينها و بين انجلترا . . .

ومنذ البداية ، أخذت الإدارة الإيطالية تعمل على إقصاء النفوذ الانجليزى ومحاربته . فاعتبرت « حزب وحدة الشباب الصومالى » ، أكبر الأحزاب التى تكونت خلال الاحتلال الإنجليزى ، اعتبرته حزباً معارضاً لها . و بدأت تـكون أحزاباً أخرى تعمل لحسابها ، ثم عادت لجمعتها فى حزب واحد هزيل اسمه الحزب الديمقراطى ، جعلت رئيسه موظفاً صومالياً لديها غـير دينه واسمه وأصبح اسمه « إدموندو » . . . ثم عاد إلى دينه الأصلى مرة أخرى باسم محمد شيخ عثمان ، ولـكنه ظل مشهوراً باسم ادموندو .. هذا بينما كان دأب العناصر الإنجليزية أن تـكيد للإدارة الإيطالية وتثير فى وجهها المتاعب . . .

مثلاً . . .

فى أوائل سنة ١٩٥٥ ، فوجئ الجميع ببيان مشترك من الحـكومتين الانجليزية والحبشية تعلنان أنهما اتفقتا على أن انجلترا ستسلم المنطقة التى كانت باقية تحت يدها من « الأوجادين » إلى الحبشة . على أن تبقى الإدارة الانجليزية هناك فى الوقت الحاضر ...

كان معنى هـذا أن الأرض التى كانت انجلترا مؤتمنة عليهـا فى الصومال قد سلمتها إلى الحبشة . دون أن تأخـذ رأى الحـكومة الإيطالية ، ولا الزعماء الصوماليين ..

وثار الرأى العام فى الصومال . وأرسل الزعماء برقيات استنكار إلى كل من اعتقدوا أنهم قد ينجدونهم ... إلى الحـكومة البريطانية ، إلى الأمم المتحدة ، إلى الجامعة العربية ، وإلى جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند !..

ثم يروى لنا كمال الدين صلاح ما حدث بعد ذلك :

« عدت من إجازتى يوم الخميس ، فوجـدت رؤساء الأحزاب السياسية ينتظرون وصولى . قالوا لى إنهم قد قرروا القيام بمظاهرة كبرى لاستنكار الاتفاقيـة الانجليزية الحبشية . وسألونى رأيى ، هل أؤيد الفـكرة أو أعارضها. وطلبت منهم أن أؤجل رأيى إلى الغد حتى أدرس الموقف وأعرف مختلف وجهات النظر ، خصوصا وجهة نظر الإدارة الإيطالية ودوائر الأمم المتحدة ...

« وقد تبين لى أن الإدارة الإيطالية تبارك هذه المظاهرة سرا . .

فما تطيب له نفوس الإيطاليين أن يروا الشعور العام فى هذه البلاد ثائراً ضد بريطانيا التى صفت امبراطوريتهم وطردتهم من إفريقيا . . .

« وفى أوساط الأمم المتحدة فهمت أنه قد ترامى إلى سمعهم أن هناك بعض عناصر ستنتهز فرصة المظاهرة للاعتداء على المتاجر بالسلب والنهب ، وسيكون الخاسر هم أهل الصومال ، إذ سيكون لذلك رد فعل سيئ فى الأمم المتحدة ، إذ يمكن الادعاء بأن الصوماليين غير أهل للاستقلال وحكم أنفسهم .

« ومن مصادر أخرى فهمت أن القنصل البريطانى هنا بذل جهوداً كبيرة لمنع هذه المظاهرة ، وحاول أن يشترى الناس بالمال . . فلما فشل فى ذلك وتأكد أن المظاهرة سوف تقوم لا محالة ، بدأ يصرف مبالغ كبيرة لبعض العناصر كى تقوم بإحداث شغب ولو بالاعتداء على القنصلية البريطانية نفسها » .

صورة نموذجية من صور السياسة الإنجليزية عرفناها فى كل البلاد التى كانت من مستعمراتهم فى إفريقيا وآسيا : المال أولا لمنع المظاهرة . . . فإذا استعصى هذا فالمال لكى تنقلب المظاهرة إلى فوضى ، ولكى يقع الاعتداء على قنصليتهم ، فيظهروا فى صورة الشهداء ، و يستغلوا الحادث

لإظهار السخط والاحتجاج وتقديم المطالب ، والدس للإدارة الإيطالية وللشعب الصومالى على السواء . . .

ويستطرد كمال الدين صلاح ـ بعد أن عرف كل هذه الحقائق ـ قائلاً إنه « فى اليوم التالى جاءنى الزعماء الصوماليون مرة ثانية ، فذكرت لهم أننى لاأعترض على قيام المظاهرة الصامتة ، ولكنى نبهتهم بشدة إلى النتائج السيئة التى قد تنجم عن وقوع أى شغب أو عدوان . ونصحتهم بضرورة وجودهم بأشخاصهم فى المظاهرة هم والأنصار البارزون من أحزابهم ، وذلك لإرشاد الناس وتوجيههم » . . .

وقامت المظاهرة : ونجحت من حيث نظامها وشعبيتها نجاحاً نموذجيا . وعندما مرت بمكتب الأمم المتحدة وقدمت نسخة من احتجاجها ألقى فيها كمال الدين صلاح كلمة هنأ فيها الشعب الصومالى على المثل الطيب الذى ضربه على النظام والتضامن والروح الوطنية العالية والقدرة على ضبط النفس . . .

كان كمال الدين صلاح بعد ذلك يتكلم مع مسيو دى لاروش الفرنسى الذى يشغل منصب سكرتير الأمم المتحدة هناك ، ويقول له : إن نفوذ الإنجليز فى الصومال بعد هذه الإتفاقية قد أصيب بضربة قاضية .

ورد عليه مسيو دى لاروش قائلاً وهو يبتسم : لاتخش على الإنجليز شيئاً ! إنهم قوم ما كرون ، وسيعرفون كيف يستعيدون مركزهم بعد وقت قصير ! . .

وبعد يومين جاء قنصل بريطانيا يزوره . . . جاء فى ثياب الملائكة يقول له : إننى أقدر عواطف الصوماليين ، وقد قلت لرئيس حزب وحدة الشباب إننى لو لم أكن قنصل انجلترا لخرجت وسرت معكم فى المظاهرة .

ويبتسم كمال الدين صلاح ويسكت ، فهو يعرف أن هذا القنصل نفسه كان منذ قليل فى الصومال الإنجليزى ، وأنه اشترك فى المباحثات التى أدت إلى الاتفاقية . وأنه من الخبراء بهذه المنطقة ، وقد خدم قبل ذلك فى الحبشة والمملكة السعودية والكويت . وأنه كان يدفع النقود لكى تنقلب المظاهرة إلى فوضى ! .

ولم تكن هذه هى المحاولة الأخيرة من جانب الإنجليز للتدخل ضد الإدارة الإيطالية . . لقد عثروا على ورقة رابحة فى هذا الميدان ، وهى : جماعة المحار بين القدماء . . .

إن هؤلاء المحار بين القدماء الذين كانوا أشد الناس سخطاً على

الإنجليز ، قد انقلبوا ضد الإدارة الإيطالية . لقد وعدهم الإيطاليون كثيراً قبل أن يعودوا . ولكنهم لم يفوا بوعودهم ، لم يدفعوا لهم المرتبات المتأخرة ولا المكافآت السخية كما كانوا يقولون . و بدأ الإنجليز فى هذه المرة يتصلون ببعض هؤلاء المحار بين و يدفعون لهم و يحرضونهم على إثارة الشغب والمتاعب . . .

كان كمال الدين صلاح منذ وصل إلى الصومال قد أصبح محل ثقة طوائف الصوماليين ومستشارهم الأول فى كل شئ . وكانت الإدارة الإيطالية تعرف ذلك وتعرف نفوذه الأدبى لدى الصوماليين فتلجأ إليه فى الملمات . . .

وفى ذات يوم جاء الدكتور بنادر يللى مدير الشئون الداخلية إلى كمال الدين صلاح يقول له إن لديه معلومات تدل على أن المحار بين القدماء سيقومون باضطرابات خطيرة فى العاصمة ، وسيستدعون زملاءهم من الأقاليم للاشتراك معهم فى ذلك . . وطلب منه أن يتدخل لديهم للعدول عن هذه المظاهرات والاضطرابات ، لأن هذا مقصود به إفساد الانتخابات النيابية القريبة . وسيعطى فكرة سيئة عن عدم الاستقرار فى الصومال فى الوقت الذى ستصل فيه بعثة من البنك الدولى لمعرفة

مايمكن تقديمه من العون المالى للصومال .

وعندما اتصل كمال الدين صلاح بهم وجد أن عناصر معينة فيهم شديدة الرغبة فى القيام بأعمال العنف . . وتبين له أن القنصل البريطانى مرة أخرى هوالذى يتصل بهم ويحرضهم ويقنعهم بأنهم لواستعملوا العنف فسوف يحصلون على مطالبهم . و بعد يومين قال له مدير الداخلية الإيطالى إن تحريات البوليس أثبتت أن الإنجليز هم الذين يحركون هذه الفتنة . . .

وظل كمال الدين صلاح يقنعهم بتأجيل المظاهرات شهراً كاملا ... قامت بعده المظاهرة ولكنها كانت هادئة بعد أن هدأت النفوس ، وأخذت الإدارة عدتها ...

واقترح كمال الدين صلاح بهذه المناسبة حلا دائماً للمشكلة بإقامة مزارع تعاونية يتملكها المحاربون القدماء . . .

على أن الورقة الكبرى التى تلعب بها انجلترا فى تلك البلاد هى : الصومال الكبير ...

فعند ما كان الإنجليز يحتلون الصومال ، أيقظوا لأول مرة الأمل فى توحيد الصوماليات الثلاثة : الإيطالى والإنجليزى والفرنسى فى دولة

صومالية واحـدة كبيرة . وآمنت الأحزاب بذلك ووضعت كلها تقريباً هـذا الهدف فى برامجها . . . فلما انسحب الإنجليز وعادت الإدارة الإيطاليـة ، لم يتركوا الفـكرة تموت ، بل ظلوا يوالونهـا بالعناية والدعاية . .

•

هنا . . . وسوف ينـدهش البعض : لقـد تعودنا من الإنجليز فى كل مكان أن يتبعوا سياسة فرق تسد ، وأن يعمدوا إلى إذكاء الخلافات واصطناع التقسيمات ... فـكيف يتزعمون وحدة إلى الاتحاد فى هذه المنطقة بالذات ؟ . . .

لهؤلاء .. يكفى أن نذكر تجربة دعوات الوحدة فى البلاد العربية . فقد كان الإنجليز يتزعمون الدعوة إلى مشروعات معينة للوحدة ، مثل مشروع الهلال الخصيب . بقصد أن تدخـل دول تحررت من فرنسا مثل سوريا فى وحدة مع دول خاضعة للنفوذ الإنجليزى كالعراق . . . فانجلترا بذلك تـكسب ، ولـكنها فى نفس الوقت تقاوم اتحاد دولة متحررة كسوريا مع دولة متحررة أخرى مثل مصر . لأنها لن تستفيد من مثل هذه الوحدة ، بل على العكس قد تصبح هذه الوحدة فى ظل الحرية خطرا عليها .

نفس السياسة تتبعها انجلترا فى الصومال ! إنها تدعو إلى الوحدة بين الصوماليات لكى تصبح دولة واحدة « تدخل فى نطاق الكومنولث البريطانى » . أما الوحدة بمعنى أن يستقل الصومال الإنجليزى وينضم إلى الصومال الإيطالى ... فلا !..

هنا ينجم سؤال يبدو محيرا : كيف يدعو الإنجليز إلى الوحدة من ناحية . . . وفى ناحية أخرى نراهم يعطون قطعا من صميم الصومال إلى الحبشة تضمها إلى أراضيها ؟ ...

والإجابة على هذا السؤال أيضا ليست صعبة بعد تأمل قليل .

إن غاية الإنجليز الأخيرة هى صرف الصوماليين جميعاً عن قضايا الاستقلال وعن الاهتمام بمحاربة الاستعمار . وإعطاء هذه المناطق للحبشة يصرف الصوماليين إلى قضايا غير قضايا الاستقلال : قضية الوحدة والاصطدام بسببها بإيطاليا وفرنسا . وقضية استعادة الأرض من الحبشة وما يؤدى إليه الاحتكاك بالحبشة من اضطرابات دائمة فى المنطقة تشغل شعوبها عن التفرغ لمصالحها الحقيقية وتحسين أحوالها الداخلية مما يسمح لانجلترا بالبقاء وتنفيذ أغراضها السياسية . . كما خلقوا مشكلة إسرائيل فى البلاد العربية !

فى هذه الخطوط كانت تتحرك سياسة انجلترا : فمحطة إذاعتها فى « هرجيسة » لا تكف عن الدعوة إلى الصومال الكبير مع تحريض خفى ضد الإدارة الإيطالية . وساستها ابتداء من حكام الصومال إلى وكيل وزارة المستعمرات نفسه لورد لويد يترددون على الصومال بحجة السياحة والزيارة ، ويتصلون بالزعماء ، ويحدثونهم عن فكرة الصومال الكبير . . . وهم يقولون لهؤلاء الزعماء عادة إن مستقبل الصومال سيكون مظلما بعد سنة ١٩٦٠ بسبب العجز المالى فى ميزانيتها، وإنها سوف تحتاج بناء على ذلك إلى مساعدات مالية أجنبية ، إلا إذا انضمت إلى الصومال الإنجليزى لكى تستعين بمواردها . . . ويحضر القنصل الإنجليزى آلات سينما يريد أن يهديها إلى أندية الأحزاب السياسية لتعرض فيها أفلام سينمائية عن التقدم فى بلاد الكومنولث والمستعمرات الحاصلة على الحكم الذاتى فى ظل الإنجليز ، ولكن زعماء الأحزاب يرفضون قبولها . . .

ويرسل القنصل الإنجليزى عميلا من عملائه يقترح على الزعماء الصوماليين أن يشتركوا فى كتابة عريضة يرفعونها إلى الحكومة الإنجليزية طالبين منها أن تساعدهم على تحقيق فكرة الصومال

الكبير ضمن رابطة الشعوب البريطانية . ولكن الزعماء يرفضون أيضا أن يعطوا الإنجليز هذه الوثيقة التى يستطيعون أن يجدوا فيها سندا شرعيا لمطامعهم . . .

كل هذا كان يقض مضاجع الإيطاليين فى الصومال . وكان الدكتور بنادر يللى مدير الشئون الداخلية لا يفتأ يقابل كمال الدين صلاح ويقول له إن تقارير الأمن تؤكد نشاط القنصل البريطانى الخفى ، وتؤكد تآمره المستمر على الإدارة الإيطالية .

✻ ✻ ✻

هل هذه هى كل القوى المتصارعة على الصومال ؟ ... هل هذه هى كل الوحوش التى ترتاد الغابة هناك ؟ ...

كلا . . .

هناك قوة أخرى عارمة ، جاءت فى ضجة هائلة تنازع القوى القديمة وجودها ، تلك هى الولايات المتحدة الأمريكية !

إن الإنجليز والإيطاليين يحتكرون الموز والسكر وما إلى ذلك ... أما الأمريكان ، فإنهم يشمون فى هذه الأرض البكر رائحة شىء جديد . . رائحة بترول !..

لقد وصلت إلى الصومال شركة سنكلير الأمريكية للتنقيب عن البترول ، بعد أن حصلت على امتياز بذلك ، منحته إياها الإدارة الإيطالية ، والحكومة الإيطالية . . .

ولم يقف كمال الدين صلاح من شركات التنقيب الأمريكية موقف عداء ، بل كان موقفه على العكس أقرب إلى الترحيب بها . فاكتشاف البترول فى هذه البلاد سوف يرفع مستوى معيشتها بغير شك . واكتشاف البترول لايمكن أن يتم إلا بواسطة دولة أجنبية لديها أموال كبيرة ولها دراية بترولية قديمة . ولكنه كان إلى جانب ذلك مهتما بالمحافظة على حقوق الشعب الصومالى فى هذا البترول . . . حتى لاتهدر ، وحتى لاينتهز أحد فرصة الوصاية ، لسرقة هذه الحقوق . . .

وقد بدأ نشاط أمريكا لفتح طريق أمام نفوذها فى الصومال منذ سنة ١٩٥٠ ، أى منذ قررت الأمم المتحدة وضع الصومال تحت الوصاية ، واختارت إيطاليا للقيام بدور الوصية . . . وفى ذلك الوقت كانت أمريكا تطبق فى أوروبا مشروعها الضخم الذى عرف باسم « مشروع مارشال » لمساعدة دول غرب أوروبا اقتصادياً ، وكانت إيطاليا من أشد الدول حاجة إلى تطبيق هذا المشروع عليها حتى تستطيع أن تتلقى المزيد من

العون المالى والاقتصادى الأمريكى . وانتهزت الولايات المتحدة هذه الفرصة كالعادة لـكى تملى شروطها على إيطاليا . وكان فى مقدمة شروطها : أن تسمح لها إيطاليا بتقديم المساعدات الاقتصادية إلى الصومال أيضاً . . .

كانت أمريكا فى ذلك الوقت فى بدء وضع سياسة إفريقية لنفسها . كانت فى تمددها العالمى ورغبتها فى السيطرة على الأسواق والخامات محتاجة إلى نقط ارتـكاز تضع فيها قدمها فى إفريقيا . فانتهزت وجود هذه الثغرة لـكى تنفذ منها .

ووافقت إيطاليا . وأرسلت بعثة النقطة الرابعة الموجودة فى روما خبراءها إلى الصومال ، يدرسون شئونه ويتجولون فى أنحائه ، ثم يعودون بتقارير وافية عن أبحاثهم : تقارير عن الطرق ، وتقارير عن الموانى ، وتقارير عن المياه الجوفية ، وتقارير عن الثروة الحيوانية . . وفى أثناء ذلك ، طاف هؤلاء الخـبراء بكل أنحـاء الصومال ، وقاموا بمسحها وتصويرها ، حتى أصبحت لديهم فـكرة وثيقة عن كل شبر فيها .

وفى سنة ١٩٥٤ ، عقدت أمريكا اتفاقية سرية مع إيطاليا بشأن « المعونة » الاقتصادية التى تقـدمها إلى الصومال . وقد كان غريباً ، ومريباً ، أن تعمد أمريكا وإيطاليا إلى إبقاء مثل هذه الاتفاقيه سرية ،

فلا تخطر بها المجلس الاستشارى للأمم المتحدة رغم مخالفة ذلك لنص اتفاقيــة الوصاية التى تلزم إيطاليا بأن تأخـذ رأى المجلس فى جميع المشروعات المتعلقة بتقـدم الصومال الاقتصادى ! فلم يعرف المجلس الاستشارى بوجود مثل هـذه الاتفاقية ، ولم يسمع الصوماليون أنفسهم بها ، إلا من طريق الإشاعة والسماع ، عند ما بدأ الخبراء الأمريكيون يتوافدون !..

وبعد ذلك جاء البترول ...

ففى فبراير ١٩٥٥ ، نجد كمال الدين صلاح يكتب قائلا : « جاء مستر آدم مدير شركة سنكلير الأمريكية للبترول فى زيارة قصيرة لمقديشيو . وقد حضر لزيارتى فى مكتبى بالأمم المتحدة ومعه مستر دونوڤان ، المدير المحلى لمـكتب الشركة فى الصومال . وقد تناول الحديث نشاط الشركة وأعمال البحث التى تمت إلى الآن . وقال لى مستر آدم إنهم لم يعثروا على شىء إلى الآن ، ولـكن نتائج الأبحاث الأولى تشجع على الاعتقاد بوجود البترول فى الصومال . . .

« وانتقل الحديث بعد ذلك إلى مايتردد من إشاعات عن المصير المظلم لرؤوس الأموال الأجنبية والخسائر التى ستتعرض لها الشركات والأفراد

الأجانب عندما يعود حكم هذه البلاد إلى أهلها فى سنة ١٩٦٠ ، وتسود موجات من التطرف الوطنى مصدرها كراهية كل ما هو أوروبى أوأجنبى. وقد قلت له إننى أستطيع أن أؤكد له ـ بحكم اتصالاتى الدائمة الوثيقة مع زعماء هذه البلاد وأهلها ، ومعرفتى بحقيقة نواياهم ـ أنهم لايضمرون أى شر نحو الأجانب أو المؤسسات الأجنبية . بل إنهم على العكس سوف يعملون على تقديم كل الضمانات الممكنة لتشجيعهم على الاستمرار ، فى توظيف رؤوس أموالهم فى البلاد لاستثمار خيراتها ، لأن هذا يتفق مع مصالح البلاد . وأضفت أننى أسمح لنفسى بأن أعطيه باسم زعماء هذه البلاد تأكيداً قويا بأن ممتلكات شركة سنكلر ومصالحها فى الصومال ستلقى كل الحماية والرعاية عندما يصير حكم الصومال فى يد أبنائه ، والمهم فى الأمر هو أن على الشركة من جانبها أن ترعى حقوق البلاد وتحترمها . وقد أبدى مستر آدم ارتياحاً كبيراً لما سمعه منى ، وقال إنه يشعر الآن أن مقابلته لى وهذه التأكيدات المطمئنة هى أكبر ربح حصل عليه من زيارته الحالية للصومال ، وأنه يفهم مدى مكانة مصر عند أهالى هذه البلاد » . . .

وفى يوم آخر نجده يكتب قائلاً :

« دعوت زعماء جميع الأحزاب الصومالية وسكرتيريها إلى منزلى. دعوت أيضا مديرى شركة سنكلار وروجر و بعض موظفيها المسئولين . و بعد أن قدمت كل فريق إلى الآخر ، ذكرت أن الفكرة فى عقد هـذا الاجتماع هى أن يتعرف أصحاب البلاد برجال الشركات ذات المصالح التى تعمل فى بلادهم ، وأن يتبادلوا و إياهم وجهات النظر بما يحقق الخير والمصلحة للطرفين . وهذه الخطوة فى نظرى ضرورية لأن هؤلاء الزعماء هم الذين سيصير أمر البـلاد وحكمها إليهم بعد سنوات قليلة . وأشرت إلى الدعوة والتأكيدات التى أعطيتها إلى مستر آدم مدير شركة سنكلر الرئيسى عندما كان هنا باسم زعماء البلاد وأهلها ، وإننى أرجو أن أكون مصيباً فيما عبرت عنه باسمهم . والآن فاننى أترك أمر المناقشة للطرفين صاحبى الشأن ، و إننى على استعداد تام فى كل وقت لأن أكون رابطة حسن تفاهم وتعاون بينهما كلـما طلب منى ذلك . وقد تكلم زعماء الأحزاب بعد ذلك ، فقالوا إنهم يؤيدون كل التأييد الوعود التى أعطيتها باسمهم . و إننى أستطيع دائماً أن أتحدث فى المستقبل باسمهم ، فهم مطمئنون إلى أننى لاأفعل إلا مافيه مصلحة الصومال . .

« واستمرت المناقشات والاستفسارات من الجانبين بعـد ذلك .

ولما انتهى الاجتماع شكرنى مدير شركة سنكلر على تنظيم هذا الاجتماع مع الزعماء ، وقال« إنه يعرف أن نفوذ ممثل مصر قوى فى الصومال وإنه يرجو أن أكون صديقا للشركة ومعينا لها سواء لدى الأهالى أو أمام هيئات الأمم المتحدة » وقد أجبته بأننى صديق للشركة على شرط أن تبقى حقوق الشعب المشروعة مصونة ومعترفا بها .

هكذا كان موقف كمال الدين صلاح إزاء شركات البترول موقفا واسع الصدر والأفق ، ميالا إلى التفاهم ، راغبا فى أن تقوم صناعة بترول تستفيد منها الشركة وتستفيد منها البلاد . ولكن . . . لقد جدت مشكلة غريبة . . . مشكلة لم يجد كمال الدين فيها مفرا من الاصطدام بشركات البترول . .

لقد ظهر أن الإدارة الإيطالية قد أبرمت مع الشركات الأمريكية عقود امتياز لم تعرضها لا على المجلس الاستشارى للأمم المتحدة ولا على المجلس الإقليمى الذى يتكون من الصوماليين أنفسهم ، وذلك رغم أهمية هذه العقود ... الأمر الذى جعل مجلس الوصاية فى دورته الرابعة عشرة فى نيويورك يكلف المجلس الاستشارى ببحث شروط هذه العقود من جديد ، و إبداء الرأى فيها .

وكان كمال الدين قد اعتاد أن يناقش كل المسائل الهامة مع الزعماء الصوماليين وأعضاء المجلس الإقليمى . . . ويقول كمال الدين هنا : « إن الذى دفعنى إلى تبادل الرأى مع الزعماء الصوماليين فى هـذا الموضوع بالذات هو ما لاحظته من جانب مندوبى كولومبيا والفليبين من ميل إلى التساهل الشديد فى الأمر ، وحجتهم فى ذلك أن المطالبة بإعادة النظر فى العقود مع التشدد من أجل الحصول على شروط أفضل لمصلحة الصومال قد يكون سببا فى أن توقف الشركات عمليات البحث وتتنازل عن الامتياز كلية . والبلاد فقيرة وفى أشد الحاجة إلى موارد مالية تعينها على مواجهة التزاماتها والنهوض بشئونها ، ولهذا أحببت أن أعرف وجهات نظر الزعماء السياسيين وأن أكاشفهم بما أنوى قوله والمطالبة به فى المجلس وأحصل على تأييدهم لى . وشرحت لهم أن وجهة نظرى فى الموضوع هى أنه لا ضرر من التسامح مع الشركات وإعطائها امتيازات سخيـة لتشجيعها على البحث والتنقيب . أما شروط الاستغلال عند العثور على البترول ، فليس هناك معنى للتساهل فيها ، ويجب أن تـكون مشابهة للشروط المتفق عليها فى البلاد القريبة من

الصومال ، كالكويت والمملكة السعودية . وقد وجدت منهم تأييدا كاملا لوجهة نظرى ... وقد كان موقفى فى مناقشات المجلس الاستشارى مستندا إلى هذا الاتفاق .. »

ولم يقتصر ضغط أمريكا على إيطاليا على قضية البترول وحدها ... فعندما طرح النزاع بين الحبشة والصومال على تعيين خط الحدود أمام مجلس الوصاية ، كان رئيس مجلس الوصاية فى تلك الدورة أمريكيا هو مستر سيرز ، فدعا إلى إنشاء منطقة حرام بين الحبشة والصومال ، وهذا يعنى ضم مقاطعة الأوجادين نهائيا إلى الحبشة ، مع أنها أرض صومالية يسكنها صوماليون، بل وليس فيها أقليات حبشية . . فنى حدود هذه المنطقة يقوى أمل شركة سنكلر فى العثور على البترول ، والحبشة متحالفة تحالفا كاملا شاملا مع أمريكا . وإيطاليا لا تعترض على ذلك استرضاء لأمريكا من ناحية ، وللحبشة نفسها من ناحية ، فلإيطاليا فى الحبشة مصالح وآلاف من الرعايا . . .

ومع الزمن كان اهتمام أمريكا بالصومال يتزايد ويتشعب . . . فبعد خبراء النقطة الرابعة ، وبعد الأمل فى اكتشاف البترول ، كان لا بد من إنشاء قنصلية أمريكية . وكان لا بد أن تتوسع «المساعدات»

الأمريكية حتى تشمل ـ ولو فى الظاهر ـ كل مرافق البلاد ، وتصبح لها مع الزمن سيطرة حقيقية على الاقتصاد الصومالى . . .

ولم تكن المبالغ التى قدمتها أمريكا لمساعدة الصومال فى الواقع كبيرة . ولكنها كانت تحيطها بهالة من الدعاية تريد بها أن تبهر الصوماليين وإحداث أثر نفسى معين فيهم . ففى سنوات ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ مثلا ، بلغ مجموع ما قدمته أمريكا للصومال ٦٠٠ر٠٠٠ دولار أى حوالى ٢٠٠ ألف دولار فى السنة . وهو فى ذاته مبلغ بسيط . ولكن بهذا المبلغ البسيط ، استطاعت أمريكا أن تضع هذه اللافتات :

١ ـ مشروع لتنمية الثروة الحيوانية .

٢ ـ مشروع لاستغلال المنخفضات القريبة من الأنهار فى تخزين المياه خلال موسم الفيضان .

٣ ـ مشروع رى على نهر جوبا .

٤ ـ مشروع رى بالقرب من جينالى على نهر شيبيلى

٥ ـ مشروع للزراعة الجافة اعتمادا على مياه الأمطار .

٦ ـ مشروع رى بين جوهر وأفجـدى بحفر قنوات و إقامة بوابات .

٧ ـ مشروع لتخزين الحبوب فى صوامع من الأسمنت المسلح .

٨ ـ مشروع إدارى لشراء المشتريات .

٩ ـ مشروع دراسة چيولوچيه للمياة الجوفية .

١٠ ـ مشروع حفر الآبار العميقة » .

وكما كان كمال الدين يتوقع و يخاف ، بدأ هذا التسلل الأمريكى الاقتصادى يتطور إلى مراحل لا تؤدى إلا إلى خلق سيطرة سياسية حقيقية لأمريكا على هذه البلاد ...

ففى نوفمبر ١٩٥٦ ، أصدر الحاكم الإدارى الإيطالى للصومال مرسوما بإنشاء وكالة للتنمية الاقتصادية ، وهى عبارة عن هيئة مستقلة لها شخصيتها القانونية ، تستمد اعتماداتها من الإدارة الإيطالية ، ومن « أى جهات مالية أخرى » ...

وفى مذكراته كتب كمال الدين متوجسا « يظهر أن وكالة التنمية الاقتصادية هذه قد أنشئت بناء على مشورة الخبراء الأمريكيين ، على

أن تكون هى الوسيلة التى تسيطر بها أمريكا على توجيه اقتصاد الصومال ومستقبله . . . فإنه لم يمض إلا بعض الوقت على إنشائها حتى أعلن انضمام الولايات المتحدة إليها ممثلة فى إدارة النقطة الرابعة . وقد بحثنا مرسوم إنشاء هذه الوكالة فى المجلس الاستشارى للأمم المتحدة ، وتبين لى من مناقشتى للدكتور جاسبارى ممثل الإدارة الإيطالية أن هذه الوكالة هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى إقرار أو رفض أى مشروع اقتصادى يعرض عليها . وأن موافقة اللجنة الوزارية التى أنشئت لبحث المشروعات الضرورية للتقدم الاقتصادى وإحالتها إلى الوكالة لا تقدم ولا تؤخر فى الأمر شيئاً » . .

وبناء على ذلك . . وقف كمال الدين صلاح فى لجنة الأمم المتحدة يعارض بشدة فى طريقة تكوين وكالة التنمية الاقتصادية وفى اختصاصاتها . وطالب بوجوب إشراك الصوماليين فى تكوينها حتى يكون لهم نصيب فعال فى إقرار أى مشروع يعرض للبحث .. وقال إنه لا يجوز بأى حال إخضاع نمو البلاد الاقتصادى لتحكم الأجانب مهما كانوا خبراء أو فنيين حتى ولو كانوا يمثلون الجهات المتبرعة بالأموال ، وإلا أدى ذلك إلى فرض سيطرة سياسية على الصومال .

وأخـذ المجلس برأى كمال الدين ، وأرسل كتابا إلى الحاكم الإدارى بذلك .

وأبدت الإدارة الإيطالية ميلها إلى الاستجابة لهذا الرأى . ولـكن تصرفات أخرى كانت تجرى فى نفس الطريق المؤدى إلى إخضاع الصومال للسيطرة الأجنبية الـكاملة . . فبعد أيام من هـذه الجلسة الهامة نجد كمال الدين صلاح يكتب مرة أخرى متوجسا :

« . . ترامى إلى سمعى أن تفـكير الإدارة الإيطالية يتجه إلى أن يضم مجلس إدارة وكالة التنمية الاقتصادية بعض أشخاص معينين من الإيطاليين والأمريكيين ، وهم المدير المحلى لشركة سنـكلر الأمريكية للبترول والمدير المحلى لشركة آجيب الإيطاليـة للبترول ، ورئيس هيئة الخبراء الامريكيين فى الصومال . ولو صح هذا فإنه نذير غير طيب يحمل الدليل على مايبيت للصومال من إخضاعه لسيطرة رجال المال والأعمال الأمريكيين والإيطاليين . ونحن حين ندقق النظر فى أمر المعونة المالية التى تقدمها أمريكا للصومال نجـد أن أغلبها يصرف فى دفع مرتبات وأجور انتقال الخبراء الأمريكيين ثم شراء آلات أمريكية ، والمبلغ

الباقى الذى يصرف فى الصومال هو من الضآلة بحيث لايستحق كل هذه الضجة » . . .

وفى صفحة أخرى نجده يقول :

« بعد أن وفقت الحكومة الأمريكية فى خطواتها الأولى نحو وضع أقدامها فى الصومال ، بدأت المفاوضات بين شركة سنكلر الأمريكية للبترول و بين الشركة الإيطالية ، وانتهت تلك المفاوضات بأن منحت شركة سنكلر امتياز التنقيب واستخراج البترول لمدة أربعين سنة ، كما منح حق التنقيب فى منطقة أخرى لشركة آجيب الإيطالية . وقد تضمن الامتياز الممنوح لشركة سنكلر شروطا سخية جدا لصالح الشركة حتى إنه عند ما عرض على المجلس الاستشارى للأمم المتحدة لإبداء الرأى فيه أبلغ المجلس الإدارة الوصية ضرورة إعادة النظر فى شروط الامتياز وتعديلها بما يضمن مصالح الصومال و بصفة خاصة فيما يتعلق بحصة الصومال من العوائد والأرباح التى يجب أن تكون متمشية مع الحصة التى تحصل عليها حكومات البلاد المتجاورة من استغلال إنتاج البترول فى أراضيها . ولكن الإدارة الوصية ردت على المجلس ردا مطولا يستفاد منه أنها ترى أن شروط الامتياز معقولة

عادلة ولا داعى لاتخاذ أى خطوات لتعديلها . وهو رد عجيب ، يعتبر دليلا على مدى قوة النفوذ الأمريكى لدى السلطات الإيطالية .

« .. وإذا صح ما يقال من أن شركات التنقيب عن البترول فى الوقت الذى تعمل فيه لصالحها وللحصول على مصادر جديدة للربح ، تعمل أيضا لحساب المخابرات العسكرية الأمريكية بالحصول على خرائط دقيقة مفصلة للمناطق التى تعمل فيها ، وجمع معلومات عن طبيعة تلك المناطق ، والأهالى القاطنين فيها وطرق مواصلاتها ... إذا صح هذا القول فإن ما يملأ الجو من إشاعات عن رغبة أمريكا فى الحصول على حق إقامة قواعد جوية عسكرية فى الجزء الشمالى من الصومال ، قد يكون له نصيب من الصحة ، وإن كان التنفيذ سيؤجل على الأغلب لبعض الوقت » ...

هكذا تتوالى أنواع النفوذ الأمريكى الواحد تلو الآخر فبعد الاقتصاد والمساعدات تأتى السياسة . وبعد السياسة سوف تأتى القواعد العسكرية والقوات المسلحة .. أن شمس أمريكا فى هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة من إفريقيا والمحيط الهندى تطفىء شموس إيطاليا وانجلترا وفرنسا ! !

***

هذا الصراع الذى تدور له الرأس . . . هـذا الصراع الذى تشترك فيه انجلترا وفرنسا و إيطاليا وأمريكا . . . ليس كل شئ فى هذا البلد الصغير . . .

فالصومال له جارة أكبر وأقوى ، هى اثيوبيا ...

وقد كان المفروض أن تجد الصومال فى جارتها الإفريقيـة نصيراً ومساعدا لها ، كان المفروض أن تجد فى جارتها الإفريقية جداراً تسند ظهرها إليه إذا تكاثر عليها الطامعون . . . ولـكن الظروف السياسية مع الأسف ، جعلت من هذه الجارة مصدراً آخر للخطر على الصومال ، وطامعاً آخر يشترك فى الصراع الدائر فى هذا البلد الصغير . . .

والأسباب من بينها ـ مع الأسف ـ أن اثيوبيا مسيحية والصومال مسلمة . والأصل فى هـذا العصر أن الدين يجب أن لا يكون قضية سياسية ، ولا سلاحا سياسيا ، ولـكننا سوف نرى بعد قليل كيف أن الاستعمار هو الذى لجأ إلى هـذا السلاح ، وهو الذى بدأ باستغلال الدين . .

ومن بين هذه الأسباب ـ أيضاً ـ أن اثيوبيا مرتبطة إلى حد بعيد بالسياسة الغربيـة عموما ، والأمريكية بوجه خاص . فاثيوبيا غاصة

بالخبراء الأمريكيين والضباط والطيارين الأمريكيين . وهى مرتبطة بمعاهدات كثيرة للمساعدة الفنية والاقتصادية والعسكرية . فهى الدولة الإفريقية التى يظهر فيها النفوذ الأمريكى أكثر مما يظهر فى أى بلد إفريقى آخر .

ومن بين هذه الأسباب ـ أخيراً ـ أن اثيوبيا لها مطامع إقليمية فى الصومال . . .

فعند ما انتصرت القوات الإنجليزية سنة ١٩٤١ على القوات الإيطالية ، وطردتها من الصومال ومن الحبشة على السواء ، بقيت هناك حتى عاد الامبراطور هيلا سيلاسى إلى عاصمته أديس أبابا فانسحبت انجلترا من اثيوبيا وبقيت فى الصومال حتى سنة ١٩٥٠ عند ما تقرر وضعها تحت وصاية إيطاليا . وقبل أن تنسحب انجلترا من الصومال ، قامت برسم خط حدود بين الصومال واثيوبيا ، وصفته بأنه خط مؤقت ، وبمقتضاه انتزعت منطقة أوجادين من الصومال وأعطتها لاثيوبيا ، ومن ذلك الوقت خلقت انجلترا أزمة حدود بين الصومال واثيوبيا . ومن ذلك الوقت وكل المباحثات التى تجرى لتسويتها تفشل . واثيوبيا بالذات ليست متلهفة على الوصول إلى حل ،

فالأوجادين على أى حال فى يدها ، وكل يوم يمر يثبت أقدامها هناك .

وفى سنة ١٩٥٥ ، فوجئت الصومال ـ كما سبق أن ذكرنا ـ باتفاقية سرية أخرى تعقد بين إنجلترا واثيوبيا تعطيها بمقتضاها مناطق أخرى صومالية كانت تحت الإدارة الإنجليزية ...

والأوجادين منطقة مسلمة كلها ، وسكانها جميعا صوماليون ، ليس بينهم ولا أقلية بسيطة من الأحباش.. ومن ذلك الوقت ثار الصوماليون على اثيوبيا وأصبحوا يعادونها ويشكون فى نواياها كما يعادون الإنجليز ويشكون فى نواياهم .

وكما ألقى الإنجليز بدعوة توحيد الصوماليات الثلاثة فى صومال واحد كبير ينضم إلى الكومنولث ... دخلت اثيوبيا الميدان بدعوة أخرى إلى توحيد الصومال مع اثيوبيا ، كما اتحدت أريتريا مع اثيوبيا ... وفى هذه النقطة أيضا نستطيع أن نلمح بادرة أخرى من بوادر تزايد النفوذ الأمريكى : فاتحاد الصومال مع الصوماليات الأخرى سيكون لحساب الكومنولث البريطانى ، أما اتحاد الصومال مع اثيوبيا فسوف تستفيد منه الولايات المتحدة الأمريكية ... خصوصا وأن مناطق الأوجادين وغيرها من مناطق الحدود بين اثيوبيا والصومال

هى المناطق التى تأمل شركات التنقيب أن تعثر على البترول فيها ...

وقد ظهر دور أمريكا فى هذه القضية واضحا ، عندما نوقشت قضية الحدود بين الصومال واثيوبيا أمام لجنة الوصاية فى الأمم المتحدة .

« لقد تقدم السيد رفيق عشى مندوب سوريا بمشروع قرار خاص بمشكلة الحدود يوصى فيه بتعيين وسيط فى حالة فشل المفاوضات بين إيطاليا واثيوبيا لتسوية الحدود بينها وبين الصومال . وقد نشط الوفد الأمريكى فى الاتصال بوفود الدول للتصويت ضد مشروع القرار السورى. وقام كمال الدين ، والسيد رفيق عشى بالاتصال بالوفود للحصول على تأييدها . وقد عاونهما فى ذلك مندوبو الهند وسلفادور وهايتى . وكان يتزعم الحملة على مشروع القرار مستر مولـكاهى عضو الوفد الأمريكى ، الذى يعتبر مستشار وزارة الخارجية الأمريكية فى شئون شرق ووسط إفريقيا الاستوائية ، وذلك لسابق خدمته فى أريتريا . ولما كانت الولايات المتحدة قد بدأت تبدى اهتماما واضحا بهذه المناطق ، واتخذت من اثيوبيا مركزا لمباشرة نشاطها وتنفيذ سياستها الإفريقية ، فقد كان من المنطقى أن يعارض الوفد الأمريكى فى مجلس الوصاية فى أى

إجراء فيه تعريض أو إحراج للحبشة . وفى أثناء مناقشة خاصة بين كمال الدين ومستر مولـكاهى Mulcahy ، ذكر الأخير أن مشروع القرار السورى سيكون له رد فعل سيء فى الحبشة ، لأنه مقدم من دولة إسلامية ! والأحباش يشعرون أنهم جزيرة مسيحية فى بحر إسلامى ويشعرون بالأخطار التى تهـدد كيانهم من كل جانب !! ويبدو أن الفقرة الأخيرة من كلام المندوب الأمريكى كانت فلتة لسان ، فقد حاول بعد ذلك أن يفسرها بمعنى آخر ، وأن يقول إن هذا تفكيره الشخصى .. فأجابه كمال الدين بأنه لا مبرر لمثل هذا الشعور أو التفكير ، وإن الاعتقادات الدينية وحدها ليست أساساً تبنى عليه تصرفات الدول ... ثم إن رفض مشروع القرار السورى معناه بقاء مشكلة الحدود معلقة مع ما يؤدى إليه ذلك من متاعب وعدم استقرار فى هذه المنطقة .

وقد وافق المجلس على الاقتراح السورى ...

على أننا يجب أن نقف لحظة عنـد فقرة هامة وردت فى كلام المندوب الأمريكى : عن شعور الحبشة بالأخطار التى تتهددها من كل جانب !

ما هى الأخطار التى تهدد الحبشة من كل جانب ؟ . . .

إن كل الدول المحيطة بها إما مستعمرات ، أو دول مستقلة أقل منها قوة . . . ولم يعرف أحد أن هناك دولة واحدة فى هذه المنطقة لها مطامع فى أى مكان على الأرض . . . إنها كلها شعوب تريد أولا أن تستقل أو أن تحل مشاكلها الداخلية . ثم أن اثيوبيا فى منطقة بعيدة عن التوتر الدولى والحرب الباردة .. فهى نموذج للبلد الذى لا تتهدده أى أخطار ... ولكن السياسة الأمريكية فيما يبدو يهمها « إفزاع » دولة كاثيوبيا ، وإقناعها بأن هناك أخطارا وهمية تحيط بهـا ، وتخويفها كذبا بأنها جزيرة مسيحية فى بحر مسلم ! ! فبذلك تستطيع أن تتغلغل وأن تبنى القواعد العسكرية . . . إذ كيف تقنع دولة كاثيوبيا بأن تبنى فيها قواعد عسكرية إلا إذا أقنعتها بانها للدفاع عنها « ضد خطر ما » ؟ . . .

وقد أثرت هذه السياسة حتى فى المسائل الخارجية البعيدة نسبيا عن اثيوبيا، فعند ما نوقشت قضية الجزائر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة صوتت اثيوبيا ضد طلب إدراج القضية ، كما صوتت الولايات المتحدة . وكان غريباً أن تصوت دولة إفريقية قاست الاستعمار خمسة عشر سنة ضد حرية شعب إفريقى آخر يكافح بالدم ضد الاستعمار ! . . إنه موقف

غريب ، جاء ثمرة السياسة الأجنبية ، التى تريد أن تخلق العقد النفسية وتخلق أسباب التنافر بين الدول الإفريقيـة وبعضها البعض . . . رغم أنها دول متحدة المصالح فى واقع الأمر . . .

ونعود إلى متابعة خط السياسة الحبشية فى الصومال ، بعد أن فهمنا دوافعها . . .

لقد بدأت الحبشة فأرسلت مستر « إميديميكايل ديساليج » إلى الصومال بوصفه « ضابط اتصال » إذ لم تـكن لها هناك قنصلية بعد . .

وفى مذكرات كمال الدين صلاح نجـده يسجل ملاحظة غريبة عن وصول ضابط الاتصال هذا « ... إنه بدرجة وزير مفوض . وقد سبق أن عينته حكومته ضابط اتصال لها فى اريتريا أثناء فترة تقرير المصير التى انتهت بانضمام أريتريا إلى الحبشة فى اتحاد فدرالى، وقد سمعت أنه كان لنشاطه أثر كبير فى الوصول إلى هذه النتيجة . وينسب إليه البعض تدبير اغتيال زعيم الجبهة الإسلامية فى أريتريا يوم استعداده للسفر إلى أمريكا لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة لمعارضة انضمام بلاده إلى الحبشة ، وبذلك بقيت فـكرة المعارضة سجينـة داخل حدود

أريتريا نفسها ، ولم يقدر لها أن تجد الطريق إلى المحافل الدولية فى اللحظة الحاسمة ! . » . . .

بهذا التاريخ جاء ضابط الاتصال الحبشى إلى الصومال . . .

ولم يأت ضابط الاتصال بمفرده . لقد جاء ومعه كميات كبيرة من الأموال ، بدأ على الفور فى استثمارها . . . بشراء بعض الناس بغية تأسيس حزب صومالى جديد يدعو إلى اتحاد الصومال مع الحبشة !. . . ولكن محاولات ضابط الاتصال بدأت تقابل بالصد والإعراض . . ففى نفس الوقت كانت الأنباء والإشاعات تأتى مع الصوماليين الهار بين من منطقة الأوجادين عن اضطهاد حكومة الحبشة للصوماليين الذين ضم الإنجليز أرضهم إلى الحبشة ! . . وكان هذا ـ بعد الطريقة التى استولت بها الحبشة على بعض أراضى الصومال ـ كافيا لإفساد أى دعاية للوحدة معها . . .

وفى يوميات متفرقة لكمال الدين صلاح ، نجد ملاحظات متناثرة هنا وهناك عن نشاط ضابط الاتصال الحبشى ، لو جمعناها جنبا إلى جنب ، لوجدنا فيها مثلا :

● « وجد ضابط الاتصال الحبشى من الصوماليين نفورا شديدا

و إعراضا تاما عن الاتصال به ، فأخذ يتقرب من الأهالى محاولا كسب مودتهم . وقد واظب على الجلوس فى فناء الفندق الذى ينزل فيـه ، وهو الفندق الوحيد فى المدينة وملتقى الفئات الواعية ـ و بدأ يتطلف مع القادمين ، و يقدم القهوة أو الشراب لمن يجلس معه أو حتى لمن يجلس على مائدة قريبة منه . يريد بذلك أن يغرى الـكثيرين ممن يريدون تناول أى شئ دون دفع ثمنه أن يجلسوا معه أو حوله لتبدو الدائرة المحيطة به كبيرة ، على أن هـذه الطريقة لم تستمر طويلاً . فقد حدث يوماً أن أقبل أحد الشبان ، وهو مدرس فى مدارس الإدارة الإيطالية ، على الفندق . . فلما شاهد من بين الجالسين مع المبعوث الحبشى السيد عبدى نور زعيم حزب الدغل ومريفله ، وكان المبعوث الحبشى قد رآه فدعاه إلى الجلوس معه ـ ثار الشاب واندفع نحوهم ووجه إليهم عبارات تهديد عنيفة بصوت مرتفع وكان نائب حاكم مقديشيو موجوداً فى الفندق فى ذلك الوقت فأسرع إلى التدخل ، وأخذ المدرس الثائر إلى البوليس » .

● « المبعوث الحبشى يخلق حول نفسه جوا من الخوف . لقد أخذ معاوناه يذيعان عنه حكايات و إشاعات بأنه رجل إرهابى يبطش

بخصومه ، وأنه سبق أن دبر الكثير من حوادث الاغتيال فى إريتريا. يريد بذلك إلقاء الرعب فى نفوس الذين يعارضونه » .

● « يقوم المبعوث الحبشى بالحملة على مصر وعلى الشعوب العربية كلها صراحة وعلانية ، مع جميع من يتصل بهم من الصوماليين . وقد حدث منذ أيام أن كان السيد نجيب أبو عز الدين ضابط الشئون السياسية فى سكرتارية المجلس الاستشارى جالسا فى الفندق ، فأقبل عليه أحد الصوماليين وسأله عما إذا كانوا حقيقة فى لبنان ينعتون أهالى الصومال بأنهم « عبيد » فنفى ذلك واستنكره . ولما استفسر عن سبب السؤال ، أخبره الرجل أن مساعد المبعوث الحبشى قد أخبرهم بذلك الآن ، وقال لهم إنه تلقى علومه فى بيروت وكان طوال إقامته يلقى الإهانات لمجرد أنه أسود البشرة » . .

وواضح أن هذا غير صحيح . فالبلاد العربية فيها البيض والسمر والسود . وهى لم تعرف التمييز العنصرى بين الألوان المختلفة قط .

● « فاتحنى الدكتور بنادر يللى مدير الشئون الداخلية فى أمر ضابط الاتصال الحبشى وما يشيعه عن نفسه من أنه إرهابى وأنه يبطش بمن يخاصمونه . قال لى إن كل تقارير البوليس السرى تؤكد ذلك .

فأبديت عجبي لجرأة هـذا الرجل ومحاولته أن يظهر أمام الناس وكأنه صاحب السلطة الشرعية فى البلاد . وقال لى الدكتور بنادر يللى : إننا نراقب حركاته عن كثب ، وأحب أن أسر إليك بأننى أعتزم المطالبة بسحبه إذا تمادى فى تصرفاته » .

● « تؤكد المعلومات التى تجمعت لدى أن المبعوث الحبشى يسعى إلى تشكيل حزب سياسى موالى للحبشة . وقد ركز آماله فى شخص اسمه محمود البوراكى ليكون رئيسا لهذا الحزب . ومحمود البوراكى كان عضوا فى حزب وحدة الشباب الصومالى ثم انشق عليه لأنهم لا يريدون ترشيحه فى الانتخابات . وقد وعده ضابط الاتصال بتقديم كل الأموال اللازمة لـكى يباشر الحزب نشاطه » .

وقد تم بعـد ذلك تشكيل الحزب فعلا ، باسم حزب شباب الصومال الأحرار ، وبرئاسة محمود البوراكى . . . ولـما كان محمود البوراكى لا يستطيع أن يقدم للناس قضية سياسية تغريهم بالالتفاف حولها ، فقد بدأ يعمد إلى إثارة واستغلال النعرات العصبية والقبلية ... بإثارة قبيلة « الهوية » التى ينتمى إليها ضد قبيلة « الطاروط » ، بدلا من أن يعمد إلى إصلاح ما بين القبائل ، من أجل مستقبل الصومال .

رجل فى الغابة !.

من كان يتصور أن هذا كله يجرى فى الصومال ؟..

هـذه المستعمرة الصغيرة الفقيرة ، التى يرفرف عليهـا علم الأمم المتحدة ، والتى يوجد فيها مجلس استشارى يمثل الأمم المتحدة ، والتى حددت الأمم المتحدة تاريخاً حاسماً تحصل فيه على استقلالها . . . لم يمنع هذا كله من أن تـكون مرتعاً لمؤامرات الأقوياء ومناوراتهم . إن هذا البلد الصغير نموذج واضح لإفريقيا كلها . القارة التى عاش فيها الاستعمار مئات السنين ، لا عمل له إلا أن يمتص خيراتها من جهة ، وأن يعمل على بقاء التأخر فيها من جهة أخرى . . . فلما تغير العصر ، واستقلت أكثر الشعوب ، وظهرت الأمم المتحدة ، وبدأ الضمير العالمى يقوى ، لم يرض الاستعمار أن ينسحب ، ولـكنه ما زال يحاور ويناور ، يغير أساليبه ، ويحمل أسماء جديدة ، ولـكنه يريد نفس الشىء آخر الأمر : إهدار شخصية هـذا الشعب ، وإبقاءه على تأخره ، لـكى يتيسر له استغلاله أطول فترة ممكنة من الوقت . . .

ومن النادر أن يتصارع فى بلد واحد هذا العدد من الدول الطامعة . . انجلترا وفرنسا و إيطاليا وأمريكا واثيوبيا . ولكنهم جميعا يعلمون حقيقة هامة : أن تحرر هذا البلد الصغير، سوف ينشر النور والتحرر فيما حوله من البلاد . هذه المنطقة المظلمة من العالم ، سوف تكون إضاءة مصباح واحد فيها كافية لكى يعمل الآخرون على إضاءة المصابيح فى بلادهم .

وفى وسط هذا الصراع العميق المرير ، وجد كمال الدين صلاح نفسه ! . إنه إذا لا يصادف مهمة سهلة فى هذه البلاد ، بل لعله يواجه أصعب وأدق ما واجه فى حياته من مهمات ..

فماذا يصنع ؟ ..

ليس أمامه سوى طريق واحد : أن يؤدى واجبه !.

واجبه نحو الأمم المتحدة التى يمثلها ويمثل رسالتها التحريرية الإنسانية فى هذه البلاد . . ثم واجبه نحو هذا الشعب الباسل الصغير .. ثم واجبه نحو قارته إفريقيا ، ونحو بلاده ، ونحو كل الشعوب المستضعفة فى العالم . . .

ولم يبدأ كمال الدين صلاح بمعاداة أحد . ولـكن أداءه لواجبه كان لا بد أن يجلب له صداقات وعداوات مختلفة . . . ومع ذلك ، فنحن لا نجد ـ حتى فى طريقة أدائه لواجبه ـ تزمتا ولا تعسفا .. إنما نرى سماحة ورحابة صدر وسعة أفق ورغبة فى التعاون ... بشرط أن لا يجعله هذا يتخلى عن مصلحة حقيقية لشعب الصومال ، أو عن مبدأ أساسى من مبادىء الأمم المتحدة ...

فأما عن الصوماليين أنفسهم ، فلا أتحدث هنا عن علاقته بهم . فـكل سطورهذا الـكتاب ناطقة بما كانوا يكنونه له من حب وتقدير. كان هو بالذات محل ثقتهم أفرادا وجماعات ، يرجعون إليه فى مشا كلهم و يستشيرونه فى كل خطوة يفـكرون فيها ،حتى البسطاء من الصوماليين فى الأقاليم والغابات كانوا يرحبون به ترحيبا خاصا ...

أما عن الجهات الأجنبية ، فهناك عشرات الأمثلة يمكن ضربها على اعتدال كمال الدين صلاح وتسامحه ورغبته فى التفاهم معها . . .

فى بعض صفحات مذكراته نجد كمال الدين صلاح يقول « كنت أتحدث مع الوزير الإيطالى اسپينللى السكرتير العام للإدارة . قلت له إن مصر ليس لها أى مطامع سياسية أو اقتصادية فى هذه البلاد ، فمركز

الصومال وظروفه لا تدعو إلى شيء من ذلك . وليس فى تفكيرى ولا قصدى أن أسبب أية مضايقات أو متاعب لإيطاليا هنا . بل على العكس نحن حريصون على التعاون مع إيطاليا وتقوية علاقات الصداقة والمصلحة معها . ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذه بلاد إفريقية إسلامية ،فعلى مصر واجب مساعداتها خصوصا فى الميدان الثقافى والفنى كما تساعد سوريا والعراق والأردن وليبيا وأندونيسيا وغيرها . وإذا كان على مصر أن تلعب دورا خاصا فى النهوض بالشعوب الإفريقية فإنها تفضل التعاون مع إيطاليا فى هذا الميدان على سواها من الدول الأوروبية الأخرى . فهذه الدول الأوروبية الأخرى لها مستعمرات ومطامع فى إفريقيا يخشى منها ، بعكس إيطاليا . ونحن لذلك راغبون فى التعاون مع إيطاليا ، ونرى من حقها أن تكون لها الأولوية على غيرها من الدول الأجنبية وأن يستمر الرعايا الإيطاليون فى الإقامة والعمل مع أهل هذه البلاد فى جو من الصداقة والتعاون ، وأن نضمن لهم كل رعاية وحماية لأشخاصهم وممتلكاتهم بعد سنة ١٩٦٠ » ..

موقف معتدل واسع الأفق . ولكن هذا الموقف لم يجد صداه دائما لدى الإدارة الإيطالية ، فقد كان كمال الدين يصادف نوعين من

الساسة الإيطاليين هناك : نوع متحرر متطور ، كالوزير اسبينللى ، يعترف بضرورة تنفيذ اتفاقية الوصاية واستقلال الصومال وإقامة علاقة من التعاون المثمر على قدم المساواة . ونوع آخر ، كالدكتور فرانكا ، ليسوا من رجال السلك السياسى أصلا ، إنما هم من فلول وزارة المستعمرات الإيطالية القديمة خلال الحكم الفاشيستى . فهؤلاء قد تعودوا أن يعاملوا هذه البلاد كمستعمرات . وما زالوا يشعرون بموجدة عميقة ضد كل خطوة يخطوها الصومال نحو الاستقلال ، وضد كل من يساعدهم على ذلك ، تستعبدهم دائما أحلامهم الإمبراطورية الفاشستية القديمة ... ولذلك نلاحظ ـ وسنلاحظ دائما ـ تردد السياسة الإيطالية فى الصومال بين هذين العاملين ...

ولكن الإدارة الإيطالية كانت تقر على الدوام بنفوذ كمال الدين الأدبى ، وبسمعة مصر العالية فى البلاد ، فكانت إذا اشتدت الأزمات لجأت إليه ليتوسط بينها وبين الصوماليين ، كما رأينا فى أزمة مظاهرات المحار بين القدماء ...

وبنفس الروح المتعاونة ، تميز موقف كمال الدين من شركات البترول الأمريكية وامتيازاتها . لقد حاول كما رأينا فيما سبق أن يوفق

بينها و بين زعماء البلاد الذين سيحكمونها بعد الاستقلال . وأراد أن يطمئنها على مستقبلها حتى يشجعها على الاستثمار بما يفيد شعب الصومال ، ولكنه فى نفس الوقت كان يجد من واجبه أيضاً أن يحافظ على حقوق الصومال لدى هذه الشركات ، الأمر الذى جر عليه عدوات أخرى ، من الذين يريدون أن يستثمروا البلاد بلا قيد ولا شرط و لا احترام لاستقلالها وسيادتها . . .

وقد حاولت القوى الاستعمارية هناك أن تتهم كمال الدين بأنه إنما يريد أن يبسط نفوذ مصر على الصومال . على أنه ليس هناك دليل واحد على أى مطامع يمكن أن تساور مصر نحو الصومال ، إلا مصلحتها فى أن يستقل الصومال كدولة إفريقية شقيقة . . . إلا أننى أنقل هذه السطور المشرقة من إحدى يوميات كمال الدين . سجلها وهو فى نيويورك يبدى رأيه أمام مجلس الوصاية عن مشكلة الحدود بين الصومال والحبشة ، ناطقة بفهم كمال الدين لواجبه ، وتفريقه بين كونه ممثلا لمصر وممثلا للأمم المتحدة :

« .. قال لى رئيس وفد الحبشة الدائم فى الأمم المتحدة إن دفاعى عن الصومال فى قضية الحدود أمام مجلس الوصاية يعتبر موقفا غير ودى

من مصر إزاء الحبشة . وقلت له : إننى أقدر تماما علاقات الصداقة التى تربط مصر بالحبشة من قديم الزمان . وأنا مدرك أيضا للمصالح المتبادلة بين البلدين فمصر لها مصالح هامة ومباشرة مع الحبشة فى حين أنه ليست لها أية مصالح مباشرة أو غير مباشرة مع الصومال ، لا فى الميدان السياسى ولا فى الميدان التجارى ولا فى غيرها . ولكننى أحب فى الوقت نفسه أن أوضح لك أننى فى موقفى أمام مجلس الوصاية لا أعبر عن وجهات نظر حكومتى ، فإننى بحكم مركزى كعضو فى مجلس الأمم المتحدة للصومال رجل دولى ، ومن واجبى رعاية مصالح الصوماليين والدفاع عن حقوقهم . ولقد كلفونى بأن أبدى وجهة نظرهم للمجلس فى موضوع الحدود وقدموا لى من الأدلة والبيانات ما أقنعنى ، وأنا فى هذا كالمحامى الذى يوكله شخص للتكلم باسمه أو الدفاع عنه أمام المحكمة ، فلم يكن فى وسعى والحالة هذه أن أتخلى عنهم أو أخونهم وقد ائتمنونى على حقوقهم ، لمجرد اعتبارات خاصة بالعلاقات بين بلدى و بلد آخر ، أو تنفيذا لتعليمات أتلقاها من حكومتى . فإننى فى هذا الموقف أبيح لنفسى عدم التقيد بهذه التعليمات ، ولو أننى فعلت غير ذلك لكنت رجلا غير أمين ! » .

* * *

وفى الناحية الاقتصادية ، التى بسببها يدور صراع كثير ، كان لـكمال الدين صلاح رأى هام فى طريقـة النهضة باقتصـاديات الصومال . . .

إن مشكلة الصومال الأولى هى قلة الموارد والفقر . والاستعمار الإيطالى خلال إقامته الطويلة فى تلك البلاد لم يهتم بتنمية مواردها ، بل اهتم فقط بأن يسهل لبعض الأفراد الإيطاليين استغلال ما يمـكنهم استغلاله من مواردها فحسب . وفى فترة الوصاية ، كانت الميزانية على الدوام عاجزة، وكان واضحا أنه لا بد أن الصومال سيحتاج إلى معونة اقتصادية سنوية من الخارج . والمشروعات التى كانت تعرض للبحث فى الصومال كثير منها غير واقعى ، وكثير منها مبالغ فيه ، ربما ينجح فى استثمار مرفق معين كالبترول ، ولـكنه لا يرفع مستوى معيشة الشعب الصومالى ككل . . .

ومن هذه الظروف ، ومن معرفته الواقعية بالصومال ، ومن رحلاته واتصالاته وامتزاجه بالأهالى ، رأى كمال الدين صلاح أن الحاجة تدعو إلى مشروعات أكثر واقعية تتفق مع حاجة الصومال العاجلة إلى الموارد . وأن هـذه المشروعات يجب أن تشمل المناطق التى يستغلها الوطنيون

لا الأجانب فحسب . وعندما جاءت بعثة الأمم المتحدة الزائرة إلى الصومال ، قدم إليها ماسبق أن قدمه إلى الإدارة الإيطالية من اقتراحات ، منها :

أولاً — الاستعانة بخبراء من الأمم المتحدة وبمساعدات من البنك الدولى .

ثانياً — تعليم الأهالى طرق الفلاحة البسيطة التى ثبت نجاحها فى البلاد الإفريقية التى تقرب ظروفها من ظروف الصومال . وذلك بإحضار موجات من الفلاحين المدربين ، من البلاد العربية والإفريقية العريقة فى الزراعة يعيشون مع الأهالى ويعلمونهم كيف يحرثون الأرض وكيف يروونها بواسطة المحاريث والسواقى البسيطة التى يستعملونها ، وذلك للاستفادة إلى أقصى حد من مصادر الثروة الطبيعية التى بين أيديهم وهى الأراضى والمياه والحيوانات .

ثالثاً — الاهتمام بمد الطرق إلى مناطق إنتاج الصوماليين ، كما تمد إلى مناطق إنتاج الإيطاليين . وتعليم الصوماليين طرق صيانة هذه الطرق .

رابعاً — تسهيل عمليات إقراض الصوماليين ومحاولة خلق رأس مال صومالى وطنى .

خامساً — خلق الصناعات التى تقوم على الخامات الموجودة فى البلاد ، مع إشراك الصوماليين فى رأسمالها ، بتقديمهم الخامات التى يملكونها كالمواشى فى صناعة منتجات الألبان وحفظ اللحوم مثلاً والقصب فى صناعة السكر .

سادساً — تعليم الصوماليين الصناعات المنزلية مثل صناعات الغزل والنسيج اليدوية والأكياس والحقائب وصناعة النجارة والحدادة لعمل لوازم الزراعة البسيطة كالمحاريث والعربات . . .

هذا الأسلوب ، معناه أن تنبع النهضة العمرانية من صميم الشعب الصومالى ، ومن موارده و إمكانياته الموجودة ، مما يفتح أمامه جميع أبواب التطور بعد ذلك، ومثل هذه المشروعات نجاحها أضمن وثمرتها أسرع من المشروعات التى تأتى من الخارج والتى تعتمد دائماً على الخارج . . .

ولم يكن كمال الدين صلاح يكتفى بشرح أفكاره وتقديم مقترحاته ، بل كان لا يترك فرصة إلا و ينتهزها لوضعها موضع التنفيذ . فعندما التقى مع مستر جايبال مندوب الهند فى لجنة الأمم المتحدة الزائرة ،

اقترح عليه أن تهدى حكومة الهنـد إلى الصومال عددا من المناسج اليدوية للصومال . وقد بعث مستر جايبال بهـذا الاقتراح إلى وزارة الخارجية الهندية التى أرسلت إلى كمال الدين صلاح تسأله عن بعض البيانات ، فأرسل إليها البيانات ، واقترح عليها أن ترسل مع المناسج عددا من النساجين الهنود ليقوموا بتعليم الصوماليين كيفية صنع هـذه المناسج وطريقة استعمالهـا . فبذلك يستطيع الصوماليون أن يسدوا حاجاتهم من صناعاتهم المنزلية وخامات النسيج المتوفرة لديهم من رعى الأغنام . . .

وتنفيذاً لفـكرة تعليم الأهالى وسائل الزراعة الممكنة وتشجيعها ، ذهب إلى الصومال بناء على طلب الإدارة الإيطالية خبير مصرى فى زراعة القطن ، قام بدراسة واسعة ثبت منهـا أن زراعة القطن ممكنة وستكون ناجحة جداً فى هذه البلاد . وانتهز كمال الدين هذه الفرصة ، واقترح على الوزير اسپنيللى أن تحضر بعثة من مهندسى الزراعة ومهندسى الرى المصريين لإقامة محطات تجارب لزراعة القطن ولاستغلال إمكانيات الرى . ورحب الوزير الإيطالى اسپنيللى بالفـكرة ترحيبا شديدا . وقرر تنفيذها فوراً . وكلف كمال الدين صلاح بأن يكتب

إلى مصر فى طلب خبراء الرى والقطن ، وأن يقنع خبير القطن المصرى الموجود بإطالة مدة إقامته . وأبلغ كمال الدين ذلك إلى زعماء الصومال، واقترح عليهم أن يذهبوا لشكر الوزير اسپنيللى « وقد اعترض بعض زعماء الأحزاب على فكرة الذهاب إلى ممثلى الإدارة الإيطالية وشكرهم، وقالوا لى : إنهم طالما سمعوا منهم وعودا لم تنفذ ، ولكنى رجوتهم أن يشكروا الوزير ، فنى هذا تشجيع للإدارة الإيطالية من ناحية ، وتسجيل للمشروع من ناحية أخرى » .

ومر أسبوعان ، وسافر الوزير اسپنيللى فى إجازة ، وحل محله رجل وزارة المستعمرات الفاشستية القديم الدكتور فرانكا . فإذا به يعلن عن العدول عن هذا المشروع ، ويطلب عدم إحضار المهندسين المصريين . . . ويبرق كمال الدين صلاح إلى وزارة الأشغال المصرية طالبا عدم إرسال المهندسين المصريين !!.

لماذا ؟...

« . . أعتقد أن السبب ما رواه لى الصوماليون عن الاستقبال الشعبى الذى قوبلت به البعثة المصرية الاقتصادية عندما وصلت إلى مقديشيو وأنا غائب عن الصومال . فقد قالوا لى إن ألوف الناس

خرجوا إلى المطار وهتفوا لها ولمصر هتافات حماسية على مرأى ومسمع من رجال الإدارة . ومثل هذا الاستقبال الودى لا ترحب به الإدارة ، خصوصاً وأن الحاكم العام نفسه لا يقابل بشيء عند وصوله . ولا شك أن المخاوف والريب تغلبت على نفوس رجال الإدارة ، فرأوا عدم الاستعانة بأى خبراء مصريين فى هذه البلاد » .

أما عن تقديم معونة مالية أجنبية للصومال ، بعد الاستقلال ، فإن أكثر من دولة من ذوات المطامع تريد أن تكون هى التى تقدم هذه المعونة ، كما رأينا فى حالة أمريكا ، لتكون لها الكلمة العليا فى البلاد . وقد كان رأى كمال الدين صلاح أن هذه المعونة يجب أن تقدم للصومال إما من الأمم المتحدة ، حتى لا تسيطر دولة ما على استقلال الصومال ، وإما من دول بعيدة تماماً عن شبهات الاستعمار . وقد انضمت الإدارة الإيطالية آخر الأمر إلى هذا الرأى . وقال الحاكم الإيطالى لكمال الدين مرة : « إننى أفضل أن لا تشترك انجلترا ولا الحبشة فى تقديم هذه المعونة ، حتى تكون الصومال بمنأى عن الأزمات التى قد تصيب استقلالها » .

لغة .. بالإكراه ! ..

قد تختلف انجلترا وفرنسا و إيطاليا وأمريكا وَالحبشة فيما بينها حول مصير الصومال ، كل واحدة تريد أن يكون لها نصيب الأسد فيه ، أو على الأقل أن تكيف مستقبله بما يناسب مصالحها ، فى الزمن القريب والبعيد ...

ولكنهم ـ بعد كل هذه الخلافات ـ يتفقون على أمر واحد ، هو : تدمير كيان الصومال كشعب حر مستقل ، ودولة حرة مستقلة ..

البذرة الصلبة ، التى يتبلور حولها كيان أى شعب متماسك ، مطلوب أن تتحطم وتتفتت !.. المطلوب أن يتشكل هذا الشعب الناشىء تشكلا كاذبا .. يهدر مع الزمن شخصيته الحقيقية !.. مطلوب منه أن يكون بين الشعوب كالرجل التافه الإمعة ، الذى يقلد هذا ، و يسير فى ركاب ذاك ، و ينحنى أمام غيره ... مطلوب أن يكون كالماء فى تعريف علماء الكيمياء ... سائل لا لون له ولا طعم ولا رائحة ... فهو يتشكل

بشكل ولون الإناء الذى يوضع فيه .. فبذلك يصبح لينا سلس القياد !.

وما هى المقومات الأساسية بالنسبة لمثل هذا الشعب الناشئ ؟

- اللغـة ...
- الدين ..
- الـكرامة القومية ...
- التعليم الملائم لتاريخه وشخصيته ...
- الـكيان الاقتصادى ...

وقد رأينا فى الفصل السابق ، كيف يعمل الاستعمار فى الميدان الاقتصادى ، على جعل الصومال فرعاً من اقتصاد الدول الـكبرى يعيش عالة عليه ولا يحيا إلا به ... وكيف يقاوم الاستعمار كل ما يجعل النهضة الاقتصادية هناك نهضة حقيقية أصيلة نابعة من إمكانيات الصومال الحقيقية .والآن سنرى نشاط الاستعمار لتحطيم كيان الصومال فى سائر الميادين ..

أى لغة ــ مثلا ــ يتكلم شعب الصومال ؟ .

فى الأصل ، ليس لشعب الصومال لغة كتابة وثقافة وتاريخ . إنها

لهجات بدائية ، غير مكتوبة ، فليس لها حروف يمكن أن تدون بها . وفى خلال الاستعمار الإيطالى الطويل ، أرادت إيطاليا أن تجعل الصوماليين يتكلمون الإيطالية ، كما جعلت فرنسا الجزائريين — مثلا — يتكلمون الفرنسية . ولكن اللغة الإيطالية لم تنجح . ظلت على السطح ، كالاحمرار الذى يصيب جلد الإنسان من أثر صدمة ، أو ضربة ، أو مرض ، ثم لا يلبث أن يزول ، ويبقى للجلد لونه الأصلى ! وفى خلال الاحتلال الإنجليزى القصير ، كانت محاولة الإنجليز لتمكين اللغة الإنجليزية أكثر فشلا . . .

فبأى لغة يتكلمون ؟ . . .

إن الدين عند الشعب الناشىء عامل أساسى فى كيانه وتفكيره وشخصيته . ودين الشعب الصومالى هو الإسلام . ولغة الإسلام هى العربية ، وهى أيضا اللغة الشائعة فى الاستعمال . . .

إذا . . . فالمنطق البسيط والأمر البديهى أن تصبح لغة الشعب الصومالى هى اللغة العربية . . . بهذا طالب الناس البسطاء . وبعد أن وصل كمال الدين صلاح إلى « مقديشيو » العاصمة بشهور قليلة كان هناك اجتماع هام لحزب وحدة الشباب أكبر أحزاب الصومال

وأقواها . كان الحزب قد عقد اجتماعه لـكى يعيد النظر فى مبادئه على ضوء التجربة والاحتكاك بالناس ورغبة الجماهير . . . لقد تـكون هذا الحزب خلال الاحتلال الإنجليزى ، وتأثر فى بدء تـكوينه بكثير من الأهداف التى دسها عليه الإنجليز . ولـكنه بعد أن مضت مدة كافية اختلط فيها بالناس، واكتملت فيها قاعدته الشعبية ، عقد هـذا الاجتماع الهام ، فى اكتوبر ١٩٥٤ ليقرر فى المادة الأولى من دستوره أنه يطالب بأن تـكون الصومال جمهورية ، دينها الرسمى الإسلام ، ولغتها هى العربية . . .

فلماذا لايترك الاستعمار الناس هناك يتـكلمون اللغـة التى يريدون ؟ . . .

إن الاستعمار لايأخذ الأمر بهـذه البساطة . فاللغة فى أبسط نتائجها سوف تحدد نوع العلاقة التى تربط هذا الشعب بغيره من الشعوب . فلو تحدث الصوماليون باللغـة العربية ، فسوف تكون ثقافتهم عربية ، وتاريخهم عربيا ، وحضارتهم عربية . . . سوف يتأثرون ويتجاوبون ويتقاربون من مصر وشمال إفريقيا وسوريا والعراق والسودان ، سوف تنمو مع الزمن وشائج وشرايين وأعصاب بينهم وبين سائر الجسم الشرقى

العربى . سوف يصبح الدم واحدا والنبض واحدا والإحساس واحدا . وسوف يصبح الغرب غريبا عليهم . أما إذا أصبحت لهم لغة أخرى ، قريبة من اللغة اللاتينية ، فسوف يتعلمون التاريخ من خلال الغرب ، وسينظرون إلى الأمور بمنظاره .

واتفق الكل ، الإنجليز والطليان، وغيرهم ، على ذلك . حاولوا أن يخلقوا فكرة اللغة الصومالية ، التى يرفضها الصوماليون أنفسهم وقاموا بمحاولات لتدوين هذه اللغة بالحروف اللاتينية . . .

لكن . . . كيف يدرس الصومالى الهندسة والطب والأدب والفن ؟ ... إن لغاته البدائية لا تسعفه فى هذا كله ، ومن أصعب الصعب البدء فى نحت كلمات جديدة . إذا فلا مفر فى هذه الحالة من أن تكون لغة العلم والصناعة والفن لغة غربية : إنجليزية أو إيطالية . . . وهذا هو بيت القصيد . . .

وبعد أسابيع من قرار حزب وحدة الشباب الذى يؤازره الشعب ، وصلت إلى الصومال بعثة الأمم المتحدة الزائرة التى أشرنا إليها .

و يسجل كمال الدين صلاح فى مذكراته مادار بينه و بين اللجنة و بين المواطنين فيقول :

« . . . أصرت الأحزاب السياسية فى مناقشاتها مع اللجنة على التمسك باللغة العربيـة والمطالبة بالعناية بتعليمها . ورغم مناقشة البعثة لهم مناقشة غير مشجعة ، فإنهم أصروا على رأيهم . وكان مستر ريد رئيس البعثة ، وهو فى الوقت نفسه مندوب نيوزيلندا ، أكثر الأعضاء اهتماماً بمسألة اللغة . كان كل همـه محاربة الاتجاه نحو التمسك باللغة العربية ، وهو فى هذا إنمـا يرعى مصالح بريطانيا فى إفريقيا . فإن التمـكين للغة العربية فى هـذه البلاد يعنى فتح الباب لانتشار اللغـة العربية وروح التحرر فى مستعمرات بريطانيا المتاخمة للصومال . وقد أدخلت الإدارة فى روع أعضاء اللجنة أن تمسك الأهالى باللغة العربية ليس عن فهم لمصالحهم الوطنية ، إنما بتحريض خفى من مصر . ولم يكن هناك من أعضاء البعثة سوى مندوب الهند الذى يأخذ جانب اللغـة العربية ، ولـكنه وجد إجماعاً من باقى الأعضاء ضد ذلك . وقد ذكر لى صراحة أن أعضاء البعثة لايفهمون لمـاذا يصر الأهالى على التنـكر للغتهم الأصلية ، و إن الأمر بالنسبة لأعضاء البعثة فى هذا الموضوع لايخرج عن مجرد التعصب

ضد لغة شرقية ، والخوف مما يؤدى إليه انتشار اللغة العربية فى إفريقيا . . .

« وفى مناقشة لى مع رئيس البعثة ، سألته : وماذا بعد اختراع أبجدية اللغة الصومالية ؟ ماذا يمكن أن يدرس الصوماليون فى المدارس ؟ إن الصومالية لغة لا تاريخ لها . وليس بين الصوماليين من لديه القدرة على ترجمة المؤلفات الأجنبية فى العلوم والفلسفة والأدب . . الخ . فقال لى صراحة : يجب أن يتعلم الصوماليون لغة أوروبية على أى حال .. الإنجليزية مثلا ! » .

ثم يتنبأ بما ينتظره قائلا : « أعتقد أن إدخال اللغة العربية إلى الصومال كلغة قومية ستوضع فى سبيله كل العقبات والصعوبات التى تخطر ببال إنسان . وذلك من جانب الدول الأوروبية ذات المصالح الاستعمارية فى القارة الإفريقية ، دفاعا عن كيانها وحرصا على بقائها فى المستعمرات التى تسيطر عليها » .

ونلاحظ هنا مغزى وقوف مندوب الهند إلى جانب رغبة الأهالى فى اللغة العربية : إنها ليست لغته ولا ديانته ، بل إن دولته مشتبكة فى عداء معروف مع دولة إسلامية هى الباكستان ، ولكنه مندوب محايد ، ليس

لدولته مطامع فى إفريقيا ، ولا هى خاضعة لنفوذ دولة استعمارية ، وبذلك استطاع أن يرى الحقيقة ببساطة . أما سائر الأعضاء فهم : نيوزيلندى وأمريكى !

وبعد شهور ، وبالتحديد فى يونيو ١٩٥٥ . . . انتقلت معركة اللغة العربية إلى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك . . انتقل إلى هناك ذلك المشهد العجيب : مشهد شعب لا يريد لغته الأصلية ، ودول أجنبية تريد أن تفرض عليه هذه اللغة .

لقد انعقد مجلس الوصاية لمناقشة تطور الأمور فى شتى البلاد التى وضعتها الأمم المتحدة تحت الوصاية . وعند ماجاء دور الصومال ، دخل القاعة فرسان المعركة : الوزير اسبنيللى ، بالنيابة عن الإدارة الإيطالية فى الصومال ، والوزير كوستيللو ، وكمال الدين صلاح بالنيابة عن اللجنة الاستشارية للأمم المتحدة ، ثم اثنان من الصوماليين ، يمثلان أكبر حزبين سياسيين فى الصومال : حزب وحـدة الشباب ، وحزب دغل ومريفل . .

وناقش مجلس الوصاية كل مشاكل الصومال ، مناقشة سنعود إليها فى مواضع أخرى ، حتى وصل إلى مسألة اللغة . وفى قرارات مجلس

الوصاية القديمة توصية بأن تهتم الإدارة بإحياء اللغة الأصلية وتعليمها . . .

وأعلن مندوب الصومال صراحة أن شعب الصومال بأسره يطالب باللغة العربية لغة قومية له ، ويعجب لمحاولة الدول الأخرى أن تفرض عليه لغته الأصلية التي لا يريدها !

وبدأ أعضاء مجلس الوصاية يوجهون الأسئلة . وعندما احتدمت المناقشة قال عبد القادر آدم : إن الدول الاستعمارية ، إنجلترا وفرنسا ، تتمسكان بضرورة تطوير اللغات المحلية الإفريقية وإيجاد طريقة لكتابتها ، ولكننا مع ذلك نقول لهما : لا ، فنحن نفضل اللغة العربية . وهم أحرار يفعلون ما شاءوا بالنسبة للغات البلاد غير المستقلة التي يحكمونها ، أما نحن في الصومال فإننا لا نشاركهم وجهة نظرهم !

وقال زميله عبد الرازق حسين : إنني أعتقد أن عدم العناية بتعليم اللغة العربية في مدارس الصومال يرجع إلى أسباب سياسية . وقد اخترنا اللغة العربية لأنها لغة ديننا ، واللغة التي تتكلمها وتكتبها أغلبية الشعب الصومالي .

ومرة أخرى ، تكلم مندوب الهند فى صالح الشعب الصومالى .
وقف مستر جابيال وقال : إن اللغة الصومالية ما زالت لهجات متعددة .
وهى بذلك فى حالة تأخر لا تصلح معها لتكون وسيلة للتعليم فى المدارس ،
أو لأن تؤدى الغرض المطلوب منها فى إدارة شئون دولة مستقلة ، وهذه
هى الأسباب التى دعت الصوماليين إلى عدم التمسك بها . فمن نكون نحن
حتى ننازعهم فى ذلك ؟ من نحن لنفرض عليهم وجهات نظر أكاديمية
صرفة ؟ إن الحقائق الجغرافية والتاريخية والدينية تشير كلها إلى اللغة
العربية على أنهـا أفضل لغة للتعليم : وأهم من هذا أن الأهالى قد
اختاروها ، ويجب أن نحترم هذه الرغبة . . .

كان كمال الدين صلاح يراقب المعركة ، ولكنه لا يريد أن
يشترك فيها . ذلك أنه من السهل اتهامه بأن مصر هى التى
تريد فرض اللغة العربية فى الصومال ، لأنها لغة مصر . رغم أن
هذا غير مقبول عقلا ، فالصوماليون واقفون بأنفسهم فى ساحة الأمم
المتحدة يطلبون اللغة العربية ، وليس لمصر فى الصومال نفوذ أو سطوة
عسكرية أو اقتصادية أو سياسية أو حتى إدارية حتى يقال إنها هى التى
تضغط عليهم .

ولاحظ كمال الدين صلاح أن سوريا وسلفادور والهند تقف إلى جانب اللغة العربية ولـكن أغلبية الدول تقف ضدها : استراليا وبلجيكا ونيوزيلندا وانجلترا وفرنسا وأمريكا ، وروسيا . . . ووجد كمال الدين صلاح أنه لا بد أن يتدخل فى المناقشة . وأنه بعد كل هذه المناقشات الهامة حول اللغة يصبح من الطبيعى أن يتكلم ، فطلب الـكلمة ، وقال فيها : إننى امتنعت عن التعرض لموضوع اللغة العربية خشية اتهامى بالتحيز للغتى القوميه . ولـكن مادام الأمر يثير اهتمام الوفود إلى هـذا الحد ، فأرى من واجبي أن ألفت النظر إلى نقطتين : الأولى هى أنه يخيل إلى أن الاعتقاد السائد فى المجلس هو أن اللغة العربية لا يعرفها إلا سكان المدن الـكبيرة ، ولـكنى أستطيع أن أؤكد من خبرتى واتصالى بالأهالى فى جميع أنحاء الصومال أن اللغة العربية معروفة ومستعملة حتى فى أقصى المناطق . والنقطة الثانية هى أن الصوماليين يشعرون بأن هناك ضغطا من جانب المجلس لفرض اللغة الصومالية عليهم . وهى لغة غـير مكتوبة . ولا يفهم الصوماليون سر هـذه الحماسة للغة هم أنفسهم لا يريدونهـا . والمسألة ليست مجرد التوصل إلى اختراع شكل مكتوب لهذه اللغة . إنما الدولة المستقلة فى حاجة إلى

لغة لها تاريخها وأدبها وعلومها وفلسفتها ...

ثم روى كمال الدين صلاح للمجلس قصة طريفة ! قصة المدرسة التى أنشأتها الإدارة لتعليم اللغة الصومالية ، فلم يلبث الطلبة أن هجروها تماما بعد بضعة أسابيع ، وأغلقت المدرسة أبوابها !..

ولم تصل لجنة الوصاية بالطبع إلى قرار حاسم ، منصف . فحتى ذلك الوقت كانت القوى الاستعمارية متمكنة من السيطرة المطلقة لا على الهيئة العامة للأمم المتحدة فقط كما يعرف الجميع ، ولكن فى اللجان التى لا يلمع نشاطها أمام الجمهور عادة ، ومن بينها لجنة الوصاية .

لم تصل لجنة الوصاية إلى قرار . أما كمال الدين صلاح ، وأما زعماء الصومال ، فقد عادوا إلى مقديشيو بعد أن وصلوا إلى قرار ، وإلى اقتناع جديد .

إن الأمر لا يمكن أن يترك هكذا إلى الإجراءات القانونية التى تلعب بها الدول الكبرى ذات المصالح . إذا كانت الإدارة الإيطالية تعمل فى الخفاء لقتل اللغة العربية ومقاومتها ، وإذا كان الدكتور فرنكا يؤسس « جمعية لاتينية » يضم إليها الشباب الصومالى ، ويغريهم بالمنافع ، ليقاوم التيار المتجه إلى اللغة العربية . . . وإذا كان

مديرو التعليم فى الصوماليات الثلاثة الإنجليزى والإيطالى والفرنسى يتزاورون ويتآمرون ... ثم يعود مدير التعليم إلى الصومال الإنجليزى فيفتتح مدرسة لتعليم الصومالية بالحروف اللاتينية ... فلا بد من القيام بجهود مضاد للمحافظة على كيان شعب الصومال الحقيقى وتنفيذ رغبته الإجماعية . لا بد من الاتجاه إلى دولة عربية تساعد بالمدرسين وبالمدارس وبالمناهج ...

وكان الصوماليون قبل ذلك قد رأوا أن كل الدراسة فى مدارسهم باللغة الإيطالية ، وأن حصص اللغة العربية قليلة، فقاموا بإنشاء مدارس أهلية تتولى الأحزاب إدارتها والإشراف عليها ، على أن تدرس فيها جميع المواد باللغة العربية . فالآن لا بد من التوسع فى هذه المدارس . ولا بد من الاستعانة بمدرسين من خارج الصومال للتدريس فى هذه المدارس التى يتزاحم عليها أبناء الشعب الصومالى ...

فأى دولة عربية ، إفريقية ، يمكن الاتجاه إليها ؟...

مصر .

نريد مدرسين مصريين يعلمون أبناءنا اللغة العربية والدين الإسلامى !

نريد أن نرسل أبناءنا إلى مصر ، إلى جامعاتها وأزهرها لكى يعودوا

أهلا لقيادة شعبهم فى الطريق السليم !..

هكذا قال زعماء الصومال لـكمال الدين .

فبدأ يـكتب إلى وزارة التربية والتعليم فى مصر ، وإلى المؤتمر الإسلامى ، وإلى الأزهر ، مطالبا بإرسال بعثة تعليميـة مصرية تقوم بالتدريس باللغة العربية فى المدارس ، وبعثة أزهرية تقوم بتدريس الدين وتعليم الأهالى . وعند ما كان الزعيمان الصوماليان آدن عبد الله وعبدى نور مارين بمصر قابلا جمال عبد الناصر وطلبا منه إنشاء مركز ثقافى مصرى فى مقديشيو . وأرسل كمال الدين صلاح تفاصيل المركز الثقافى المطلوب إنشاؤه مع مسجد وعيادة خارجيـة . وأرسل مطالبا بإنشاء مدرسة ثانوية فى العاصمة ، قسم للبنين وقسم للبنات ، وقسم داخلى يتسع لأبناء الأقاليم . حتى يتم أبناء الصومال تعليمهم الثانوى فى بلادهم ثم يسافرون بعد ذلك إلى جامعات الدول العربيـة الأخرى .....

ووافقت مصر . وافقت على أن تبدأ بإرسال بعثة من سبعة من علمـاء الأزهر وتسعة عشر مدرسا ومدرسة . ولـكن ، هل توافق الإدارة الإيطالية ؟

كلا . إنها تقاوم ، فإذا عجزت عن المقاومة فإنها تتلكأ .

لقد ذهب أعضاء البعثة إلى القنصيلة الإيطالية فى القاهرة يطلبون تأشيرة لدخول الصومال ، فقالت القنصلية إن هذه مسألة سياسية ولا بد من انتظار البحث فيها !

وفى مقديشيو ذهب كمال الدين صلاح إلى الوزير فرنسكا ليسأله عن هذه الحكاية ، ويلفت نظره إلى أن رفض دخول هذه البعثة تصرف غير سليم . . .

قال فرانسكا : إنه لا بد من وقت طويل لبحث هذه المشكلة الكبيرة !

ـ مشكلة كبيرة ؟ هل دخول هذه البعثة مشكلة ، ومشكلة كبيرة ؟ إن كل أعضاء البعثة أشخاص محترمون والحكومة المصرية مسئولة عنهم .

ـ إن المسألة ليست مسألة أشخاص ، ولكنها مسألة مبدأ .

ـ أى مبدإ ؟ إننى ألفت نظركم إلى أن اتفاقية الوصاية تنص صراحة على السماح لبعثات التبشير من جميع الأديان بحرية دخول

البلاد على قدم المساواة . وحرية إقامة أماكن العبادة والمستشفيات والمدارس . . . وأنا أعلم أنه قد دخل الصومال منذ أسابيع مبشرون جدد لتعزيز بعثات التبشير الأمريكية الموجودة من قبل . فلماذا يمنع علماء الأزهر والمدرسون المصريون ؟ وما هو الأساس أو المبدأ الذى تستند إليه الإدارة فى موقفها هذا ؟

ـ أؤكد لك أننا لا نقوم بأى تفرقة بين البعثات الأجنبية .

ورد كمال الدين صلاح قبل أن ينهض : أرجو أن أرى من التصرفات ما يدل على ذلك . . . فمجرد الأقوال والوعود الطيبة لا تكفى ، ولا أقنع بها . . .

وعند ما ذهب إلى بيته ، سجل فى مذكراته « لم أخرج من هذه المقابلة بأى وعد بالموافقة على دخول البعثة المصرية إلى الصومال . إن السياسة التى يسير عليها الدكتور فرانكا بسرعة و إصرار هدفها الأول القضاء على الثقافة العربية والروح الإسلامية فى الصومال ، وفرض الصبغة اللاتينية عليه ، وفصله عن مجموعة الدول العربية والإسلامية » .

وكان لا بد أن يعلم الزعماء الصوماليون بهذا كله . فذهب وفد منهم إلى الدكتور فرانكا واحتجوا على ذلك فوعدهم بالبحث



كمال الدين صلاح

فى الأمر فى خلال أسبوع . وبعد أسبوع ذهبوا إليه مرة أخرى فعاد إلى المماطلة وقال السيد آدن عبد الله زعيم حزب وحدة الشباب فى ذلك الوقت[1] للدكتور فرانكا : إنه إذا علم الشعب بأنكم تعرقلون قدوم بعثات التعليم المصرية فسيكون لذلك رد فعل سيئ ، فالشعب يريد أن يتعلم اللغة العربية . واتجاه الإدارة إلى التمسك باللغة الصومالية ومحاولة كتابتها بأحرف لاتينية لا تفيد الشعب إطلاقا . وليس فى استطاعة الإدارة ولا الدول أصحاب المستعمرات فى إفريقيا التى تساند هذا المشروع ، ولا الأمم المتحدة نفسها ، أن تفرض ذلك على الشعب الصومالى .

واستطرد آدن عبد الله قائلا : إننى لا أحب أن أقول كلاما يؤول على أنه تلويح بالتهديد . ولكننا لن نسكت على تجاهل رغبات الشعب فى هذا الموضوع الحيوى .

وخرج الزعماء الصوماليون وقد اقتنعوا بأنه لا بد من مكاشفة الشعب بالحقائق . فالدكتور فرانكا لن يقتنع بالحسنى ، ولا بد من إرغامه على قبول البعثة المصرية إرغاما !

وبعد أن تكهرب الجو ، وأصبح ينذر بالخطر . . . وبعد أن لم

(١) زعيمه الآن هو الأستاذ محمد حسين الذى انتخب للرئاسة فى أغسطس سنة ١٩٥٧

يعد هناك أى مهرب قانونى يمكن التعلل به . . . رضخ الدكتور فرانكا ، ودخلت البعثة المصرية . . .

هل دخلت البعثة المصرية لتتآمر ؟ أو لتثير أحداً ضد أحد ؟ أو لتتعدى حدود مهمتها التعليمية ؟ . . .

كلا . إن كمال الدين صلاح يجمع البعثة فور وصولها . وينبه على أعضائها كما سجل فى مذكراته « بأن يلتزموا حدود مهمتهم التعليمية ، وأن يكونوا أصدقاء الجميع وفى خدمة الجميع ، وأن يبتعدوا بعداً تاماً عن التدخل فى الحياة السياسية للبلاد وأن يمتنعوا عن توجيه أى نقد للإدارة الإيطالية » .

وفى المدارس التى تولى المصريون الإشراف عليها ، طُلب منهم كمال الدين صلاح أن يضعوا فى جدول الدراسة حصصاً لتدريس اللغة الإيطالية . ولما اعترض زعماء الصومال على ذلك ، كان كمال الدين صلاح هو الذى تولى إقناعهم بإدخال اللغة الإيطالية ، ضمن البرامج ! . . .

ولكن هذا لم يكن كافياً لتهدأ أعصاب الوزير فرانكا . فعقد فور وصول البعثة المصرية اجتماعاً مع قنصل انجلترا ، والمبشر الأمريكى القسيس مورديكر ، وأعضاء الجمعية اللاتينية ، للبحث فى وسائل شل

حركة البعثة المصرية . إن المسألة هنا مسألة طابع وشخصية وكيان ، فلا بأس أن يتفق المتنافسون .. وأن يلتقى على مائدة واحدة الحاكم الإيطالى ، والسياسى الإنجليزى ، والمبشر الأمريكى !

وفى نفس الوقت ، كانت هناك معركة أخرى خفية حامية تدور حول اللغة والتعليم ، عاش فيها كمال الدين صلاح بأعصابه ونشاطه ، وهو فى مقديشيو ، رغم أنها كانت تدور هنا فى القاهرة ..

لقد سبق أن أوصت الأمم المتحدة الدول صاحبة الشأن أن تقدم منحا دراسية لأبناء الصومال لكى يتعلموا خارج بلادهم ، نظراً لحاجة البلاد الماسة إلى حملة المؤهلات الفنية العالية . وقامت مصر فى هذا السبيل بواجبها ، فاستضافت فى بلادها ما يقرب من مائتى طالب وطالبة من أهالى الصومال . بين المدارس الثانوية والفنية والأزهر والجامعة . . .

وفجأة ، بدأت السفارة الإيطالية فى القاهرة تنشط . بدأت تتصل بالطلبة الصوماليين الذين يدرسون فى القاهرة وتغريهم بشتى الوسائل لكى يتركوا دراستهم هنا ويسافروا إلى إيطاليا أو إلى فرنسا ... كانت تستغل صغر سن هؤلاء الشباب ، لكى تغريهم بأى وسيلة ممكنة

بالسفر إلى أوروبا . فالمهم أن يتركوا مصر . ولو تركوها رغم أنف أهلهم فى الصومال ، و بغير علم منهم . . .

. وعلم كمال الدين فى مقديشيو بما يجرى فى القاهرة . علم بذلك من آباء هؤلاء الطلبة ، الذين جاءوا إليه فزعين من إغراء أولادهم بترك مصر . ومطالبين بأن يحاول الوقوف ضد ذلك ... وفى الأوراق المتناثرة والخطابات التى تركها كمال الدين صلاح ، خطاب يقول :

« السيد المحترم مندوب مصر فى المجلس الاستشارى بالصومال ...

أنا والد الطالب الصومالى عبد الحميد محمد حسن . أقدم إلى سيادتكم طلبى هذا ، راجياً أن يكون موضع عنايتكم واهتمامكم كما عهدنا بكم دائما . .

سيدى الوزير سمعت أن ابنى الذى كان يدرس فى مصر ـ كلية الحقوق جامعة القاهرة ـ قد سافر إلى إيطاليا . و إننى أرى أنه أصبح فريسة لإغراءات بعض النفوس الشريرة الذين لا يريدون له خيراً ...

سيدى الوزير بعد تقديم اعتذارى لهذا التصرف الصبيانى من ابنى . أرجو ألتمس من سيادتكم أن تسعى لدى المسئولين فى الحكومة المصرية .

١ ـ ألا تسمح له بسحب أوراقه قطعاً .

٢ ـ أن يبقى اسمه فى كشوف الطلبة ويكون طالباً نظامياً حتى يتمكن من أداء الامتحان .

٣ ـ أن يكون اعتذارى مقبولا وذلك لرغبتى الشديدة فى أن يكمل تعليمه فى مصر ، وحتى لا تضيع كل مجهوداتى تلك السنوات الطويلة ـ الخمسة ـ التى قضاها فى مصر . كما أننى كأب أحرص على مستقبله ولن أسمح له أن يتعلم فى بلد لا يعرف ثقافته ولا يجد الإخلاص والمحبة التى يجدها عند الأساتذة والشعب المصرى .

وإننى أتعهد أن أرجعه إلى مصر ، كما أتعهد أنه لن يعمل مثل هذا التصرف الصبيانى بعدئذ ، ولكم جزيل شكرى واحترامى .

والد الطالب

محمد حسن مرسى

٢٥ / ١٢ / ١٩٥٦

وتقدم آباء آخرون ، يطلبون منه أن يعيد إلى الصومال أى واحد من أبنائهم يحاول أن يترك مصر إلى أوروبا . حتى الطالبتان الوحيدتان

فى مدرسة حلوان الثانوية ، لم تفلتا من ضغط السفارة الإيطالية وأغرائها ! . . .

ولم يكن هذا التصرف قاصراً على الطلبة الذين يدرسون فى مصر . فليست المسألة مسألة مصر . إنما هى مسألة الثقافة العربية واللغة العربية والروح العربية الاستقلالية . فطاردت القنصلية الإيطالية فى دمشق الستة عشر طالباً الذين كانوا هناك . وحرضتهم حتى أعيدوا إلى الصومال . . . أو أرسلت بعضهم إلى أوروبا . . .

من هذا البعض الذى سافر إلى السوربون طالب اسمه شريف عثمان لم يلبث بعد أن ذهب إلى باريس أن اتصل بالطلبة العرب ، واشترك فى نشاطهم ضد الاستعمار ومن أجل حرية البلاد العربية ، فلم يصبروا على ذلك ، وطردوه من السوربون وأعادوه إلى الصومال ! ...

إلى هذ الحد كانت الإدارة الإيطالية ، وحلفاؤها من الإنجليز والفرنسيين ، حريصة على مطاردة اللغة العربية ، والثقافة العربية ، تريد بذلك أن تجعل الشعب الصومالى نباتا صغيرا ذابلا ، لا فرعا مورقا فى شجرة ضخمة باسقة ...

وقد انتقلت هذه الحرب على اللغة العربية والثقافة العربية إلى

مستوى آخر ، عندما انتخب أول برلمان صومالى ، وتألفت أول وزارة صومالية ، برئاسة السيد عبد الله عيسى. إن حزب وحدة الشباب الذى ينص دستوره على أن اللغة الرسمية هى اللغة العربية هو الذى فاز بالأغلبية ، وهو الذى شكل الوزارة . ومع ذلك ، فقد ضغطت الإدارة الإيطالية على الوزارة ، حتى يخلو بيانها الوزارى الأول أمام المجلس النيابى من أى إشارة إلى اللغة العربية عند الحديث عن شئون التعليم ، مع أن موضوع اللغة كان دائما مثار اهتمام الشعب ، والجمعية التشريعية نفسها ، حين أوصت الوفد الصومالى المسافر إلى نيويورك بأن يبلغ مجلس الوصاية أن الشعب الصومالى يتمسك باللغة العربية ...

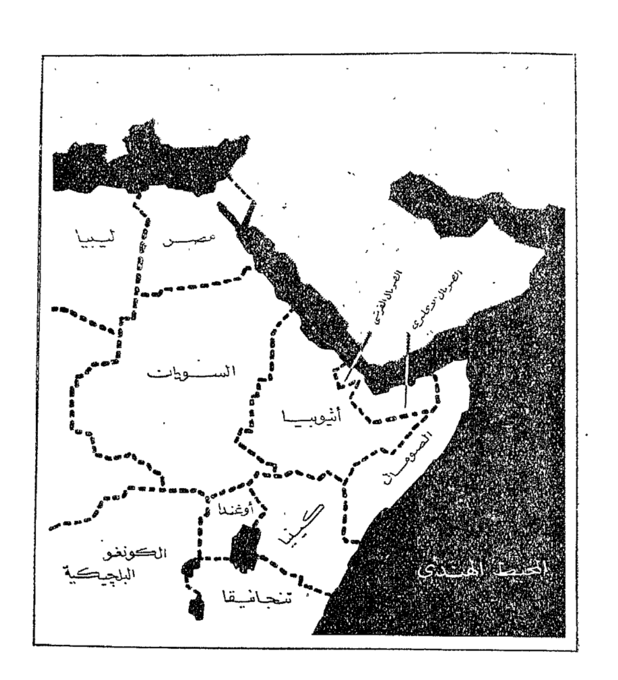
ولم تفت هذه الملاحظة أعضاء الجمعية التشريعية ، فقام البارزون منهم ، الواحد بعد الآخر ينتقدون البيان الوزارى لخلوه من الإشارة إلى جعل اللغة العربية لغة الصومال الرسمية .تكلم فى ذلك النائب نورحاجى والنائب عبد الله مرسل والنائب أبشر فارج والنائب شيخ محمود عبدالله إسلام والنائب عبدى نور حسين ، وهم يمثلون أحزاب الحكومة والمعارضة على السواء .

وتلفت الأنظار هنا الكلمة التى ألقاها النائب عبد الله مرسل ،

وقال فيها : إن الإسلام دخل هذه البلاد بعد الهجرة بمائة عام (أى منذ ١٤٠٠ سنة) و إن اللغة العربية منتشرة من ذلك الحين . واللغة الصومالية نفسها مشتقة من اللغة العربية . وجميع الوثائق من ملكية وعقود وخلافه كانت مكتوبة بالعربية قبل مجئ الإيطاليين ، ولذا فإنه يعجب من الذين ينادون بإقصاء اللغة العربية . وهذا الشعب إذا كان صوماليا فلا ضير فى أن يتخذ اللغة العربية لغة رسمية له ، وأمثلة ذلك كثيرة كالسودانيين والمصريين والمراكشيين والجزائريين . ونفس الأمر بالنسبة لشعوب أمريكا اللاتينية التى اتخذت اللغة الإسبانية لغة رسمية ، رغم أنها تتحدث بلهجات أخرى ...

ولم يقتصر التيار على الجمعية التشريعية . بل إن حزب وحدة الشباب ، حزب الحكومة ، قد ثار على موقف الحكومة الضعيف من هذه المسألة ، بل أعلن بعض سكرتيرى فروع الحزب فى الأقاليم « عدم رضائهم عن مسلك الحكومة، وأنها لا تسير فى الطريق الوطنى السليم ، وأن الشعب هو الذى أتى بالوزراء وهو يملك أن يخلعهم من مناصبهم » ... وهدد آخرون بالانفصال عن الحزب وتأليف حزب جديد ... فأخذت الحكومة تعتذر عن ذلك ، وتسترضى الثائرين ! ...

وكتب كمال الدين صلاح معلقا على هذه المعركة « . . . إن هدف عملاء الاستعمار الغربى من التمهيد لهذه الفكرة أن يصبح الجيل الجديد من الصوماليين بعيدا عن مصادر الثقافة العربية ، وبذلك يتم فصل الصومال عن الشعوب العربية . فإذا ما تحقق ذلك انفردت به قوى الاستعمار لتنفيذ ماتشاء من خطط ومشاريع تخضعه لنفوذها واستغلالها . وعندما يتلفت الشعب الصومالى للاستنجاد بالشعوب العربية يجد الهوة التى حفرها بنفسه والتى تفصل بينه وبينها عميقة واسعة يصعب اجتيازها . وهدفهم ثانياً تأخير الشعب الصومالى ثقافيا أطول مدة ممكنة . لأن الجهل وضعف التعليم يوفران الجو المناسب الذى يعيش فيه التحكم والاستغلال الاستعمارى هادئا مطمئنا . فمع التسليم بإمكان كتابة الصومالية باللاتينية ، إلا أن عدم وجود الطبقة المثقفة الواعية ، بحكم القيود التى فرضها عهد الاستعمار الفاشيستى فى الماضى ، تجعل من المتعذر وجود المؤلفين من أبناء الصومال الذين لديهم القدرة على التفكير والتأليف . وليس بين الأجانب من يحسن اللغة الصومالية بحيث يستطيع التأليف بها . وبهذا يجد الصوماليون أنفسهم فى النهاية أمام الحقيقة المرة ، وهى انعدام المراجع والكتب اللازمة للمضى فى مراحل التعليم المتعددة » . . .



ليبيا
مصر
الصومال الفرنسي
الصومال البريطاني
السودان
أثيوبيا
الصومال
أوغندا
كينيا
الكونغو
البلجيكية
تنجانيقا
المحيط الهندي

الدين .. فى خدمة البترول

قسيس إيطالى اسمه « فيليبنى » ، يروح ويجئ فى أنحاء الصومال ، منذ خمس وعشرين سنة . إن مهمته الرسمية هى أنه رئيس بعثات التبشير الكاثوليكية فى الصومال . ولكن الإدارة لا تعامله معاملة قسيس عادى . فهو يتمتع بالحصانة الدبلوماسية ، وبالإعفاءات الجمركية وسيارته الخاصة تحمل رقماً من أرقام « الهيئة السياسية » .

إن مهمة هذا القسيس سياسية فى الدرجة الأولى . وكذلك مهمة كل بعثات التبشير ! . . .

لقد تعود الشرق منذ زمن بعيد أن يكون شعاره : الدين لله والوطن للجميع . وأرض هذا الشرق هى التى أنبتت كل الأديان ، فكان من الطبيعى أن تألف وجود الأديان المختلفة جنبا إلى جنب . ولم يعرف الشرق أبدا الحروب الدينية التى عرفتها أوروبا مثلا . لم يعرف الشرق الحروب الدينية إلا على يد أوروبا التى كانت تبرر موجات غزوها للشرق بأسباب دينية ، كما تفعل الآن إسرائيل .

وفى إفريقيا بالذات ، نجد أن الاستعمار لايتورع عن استخدام الدين وجعله مطية لتحقيق أغراضه . . .

إن الشعب الصومالى شعب مسلم ، منذ أكثر من ألف سنة . فإذا كان الغرب يحترم كل الأديان ويقدرها كما نحترمها ونقدرها نحن فى الشرق . . . فلماذا يحاول أن يخرج هذا الشعب عن دينه ؟ أليس هذا ـ وحده ـ عدوان واستفزاز و إثارة للمشاكل ؟ . . .

فما بالنا إذا كان الأمر ليس قاصرا على الدعوة الدينية فقط ؟ . . . مابالنا إذا كان هذا التبشير الدينى يسير دائما فى ركاب الاستعمار ، متلونا بلونه ، متلائما مع ظروفه ، ملبيا لحاجته ؟ . . .

فى الأصل ، كانت أكثر البعثات التبشيرية فى الصومال بعثات بروتستانتية . فلما دخل الاستعمار الإيطالى ، أخذ يطارد المبشرين البروتستنت ، حتى تخلص منهم ، وأفسح المجال أمام المبشرين الإيطاليين . . . الكاثوليك ! . . .

والآن . . منذ سنوات فقط . . . أى نفوذ سياسى واقتصادى بدأ يجتاح العالم الغربى ؟ على أنقاض النفوذ الاستعمارى القديم ، إيطاليا أو فرنسيا أو إنجليزيا ؟ . . . إنه النفوذ الأمريكى . . ومن أجل ذلك

بدأ زحف المبشرين الأمريكيين ــ البروتستنت ــ يغزو الصومال . . . دخلها مع النقطة الرابعة ، وشركات التنقيب عن البترول ، والخبراء ! . . .

وكانت هذه معركة أخرى ، على كمال الدين صلاح أن يواجهها . . .

عنـدما ذهب أول الأمر ، كانت السطوة ماتزال فى يد بعثات التبشير الإيطالية . كان « فيليبينى » الذى يقيم فى الصومال منذ ٢٥ سنة حتى عرف لغة البـلاد وأهلها وعاداتها وتقاليدها ، هو النجم اللامع والأب الروحى للتبشير . . . وكان « إدموندو » هو ابن التبشير وتلميذه البكر . . .

إن « إدموندو » ليس إيطاليا ، ولـكنه صومالى . صومالى مسلم فى الأصل ، اسمه محمد شيخ عثمان ، ولـكنه دخل منذ كان صبيا فى مدارس التبشير ، وارتد عن الإسلام ، ولـكنه عند ما كبر ودخل الحياة العامة ، ترك المسيحية وعاد أدراجه إلى الإسلام . . . ولـكنه ظل أمام الناس ــ وأمام نفسه ــ بغير دين ، و بغير اسم .

والإدارة الإيطالية تهتم بأن تمنح خريجى مدارسها التبشيرية أحسن المناصب ، وأكبر المرتبات ، حتى يظهروا متفوقين على أهلهم وأقرانهم

الباقين على الإسلام ، أملا فى أن يكون فى هذا دعاية كافية للتبشير .

أما « إدموندو » الابن البكر للتبشير ، فقد أسست الإدارة له حزبا اسمه الحزب الديمقراطى، وعينته سكرتيرا عاماً له ، وأرسلته إلى روما ليتمرن فى وزارة الخارجية الإيطالية . . . فمن يدرى ؟ لعله يكون فى المستقبل وزيراً ، أو سفيراً ، فلا ينسى أن يظل عميلا لأرباب نعمته : إنه نموذج حى فريد ، من نماذج الأشخاص الذين يصنعهم الاستعمار . . فبعد أن يسلبهم كل مقومات الشخصية السليمة ، فى التاريخ والكيان والبناء النفسى ، يدفعهم إلى المراكز العليا والمسئوليات ، لأنه يعرف أن لا خطر منهم قط ، بعد أن انتزع منهم كل صفات الشخصية والاستقلال !..

ولكن حركة التبشير الإيطالية لم تلبث أن بدت ضعيفة ، خائرة ، إزاء الغزو البروتستنتى الجديد ، الآتى مع الأمريكان ..

لقد وصلت إلى الصومال بعثتان على التوالى : الأولى بعثة Somalia minnonite mission يرأسها قسيس بروتستنتى اسمه ويلبرت لند ... والثانية برئاسة قسيس آخر اسمه « موردیكر » .

وقد بدأت كل بعثة بإقامة مركز تعليمى لدراسة اللغة الإنجليزية والدين . وبدأ رئيسا البعثتين يهاجمان الدين الإسلامى والمعتقدات

الإسلامية عننا . وبسرعة تحسد عليها البعثتان ، بدأتا تتدخلان فى القضايا المحلية ، والسياسية ، وفى مقدمتها : قضية اللغة .

أصبحت كل من البعثتين مركزاً للحملة على اللغة العربية وثقافتها وتراثها ، ومركزا للدعوة الاستعمارية السياسية إلى كتابة اللغة الصومالية بحروف لاتينية ، بل إن القسيس مورديكر ، أعلن أنه لن يقبل فى مدرسته من يتعلم اللغة العربيـة . . حتى إن بعض الشبان الراغبين فى دخول مدرسة التبشير لمجرد دراسة اللغة الإنجليزية ، كانوا يخفون دراستهم للغة العربية حتى لا يتعرضوا للطرد !..

وفى خارج العاصمة ، أحضر مورديكر اسطوانات تتكلم باللغات العربية والصومالية والإنجليزية ، داعية الأهالى إلى ترك الدين الإسلامى واعتناق المسيحية . . فـكان الأهالى فى بعض المناطق يتركونها تصرخ، وفى مناطق أخرى كانوا يقذفونها بالحجارة و يطردونها من قراهم . .

وأراد المبشرون الأمريكيون ـ بعـد أن استقروا فى العاصمة ـ أن يبسطوا نشاطهم فى سائر أنحـاء الصومال ، فبدأوا يطلبون أرضا فى قرية مهدايا ، على بعـد مائة كيلو متر من العاصمة . ولـكن الشريف محمود عبـد الرحمن رئيس الرابطة الإسلامية ذهب إلى هذه

القرية ، وخطب فى أهالى القرية . . فلما ذهب المبشر إلى القرية فى الأسبوع التالى طرده أهلها . . .

ولم ييأس المبشرون . لقــد عدلوا مؤقتا عن فــكرة الاستقرار فى أرض يملــكها الأهالى ، واتجهوا إلى قرية جوهر حيث تملك شركة S . A . I . S الإيطالية مساحات واسعة من الأراضى الزراعيــة ، ممــا قد يغنيهم عن الحصول على موافقة الأهالى . ولــكن الشريف محمود عبد الرحمن ذهب أيضا إلى مقابلة رئيس الشركة ، ومعه وفد من ممثلى الأحزاب السياسية .

قالوا لمدير الشركة : إن شركتــكم قد أنشئت هنا لأغراض تجارية . وهــذا ما نرحب به دائماً . ونحن نتمنى للشركة أن تزدهر ويتضاعف نشاطها ، كما أننا حريصون على تقديم كل الضمانات التى تشجع رؤوس الأموال الأجنبية على العمل فى الصومال . كل هــذا بشرط أن تبقى الشركة تجارية فقط . أما إذا بدأت الشركة تحيد عن أغراضها التجارية ، وتتدخل فى أمور تتصل بالعقيدة الدينية ، فسوف تــكون لهذا عواقب وخيمة . .

وقال المدير أنه يوافق على رأى الوفد الصومالى . وأنه يعدهم

بذلك . وخاب للمرة الثانية سعى المبشرين .

فى هـذه الأثناء كان زعماء الصومال لا ينقطعون عن مطالبة كمال الدين صلاح بتزويد الصومال بالمزيد من المدرسين ، من علماء الأزهر . . . ليكونوا بمثابة خط دفاع عن التكوين الروحى والنفسى والعقيدى والحضارى للأهالى ضد موجات الغزو الساحقة . وفى نفس الوقت كان مورديكر كبير المبشرين الأمريكيين لا يفتأ يضغط على الإدارة الإيطالية ، ثم على الوزارة الصومالية بعد أن تكونت ، مطالبا بمنحه تسهيلات الأراضى وغيرها . كان يضغط ، ومن ورائه قوة المال ونفوذ أمريكا على إيطاليا ، ونفوذها فى الحبشة ...

وبعد تمهيدات كثيرة ، طلب مورديكر منح البعثات التبشيرية الأمريكية أراض واسعة فى مناطق مختلفة : لكى تقام فيها مراكز للتبشير ولإقامة حقول زراعية نموذجية لتدريب الأهالى على الزراعة . واشترت البعثات كثيرا من الناس فى المناطق المطلوبة لكى يبدو وكأن الأهالى يوافقون على ذلك . ولم يبق إلا أن توافق الجمعية التشريعية أيضاً ، طبقا لاتفاقية الوصاية .

وعرضت الحكومة الطلب على الجمعية التشريعية طالبة الموافقة

عليه . وتحدث « إدموندو » أو محمد شيخ عثمان فى الجمعية التشريعية قائلا إن رفض هذا الطلب ينافى اتفاقية الوصاية التى تنص على حرية دخول المبشرين من جميع الأديان وممارستهم لنشاطهم فى الصومال . وقال إن بعثات التبشير تقدم خدمات جليلة للبلاد ، وإنه هو شخصيا ثمرة من ثمرات الجهود التى تبذلها بعثات التبشير ...

ولو شاء « إدموندو » الذى حمل اسمين ، وغير دينه مرتين ، أن يقدم نموذجا سيئا لجهود التبشير ، لما قدم سوى نفسه ! ولو كانت هذه البعثات بريئة من الأغراض لعرفت كيف تفصل بين المساعدات الفنية التى تبذلها للأهالى وبين تغيير عقيدتهم . ولكنها تقرن هذا بذاك . وتجعلهما شيئين متلازمين ، تريد بذلك لا أن تشترى جهود الصوماليين ، بل أن تشترى أرواحهم ، ونفسياتهم . إلى أعمق أعماقها !..

ولكن نواب الحكومة والمعارضة على السواء هاجموا الطلب بشدة ، فاضطرت الحكومة إلى سحبه من الجمعية التشريعية !..

كان كمال الدين صلاح ، من خلال التجارب والأحداث ، قد أصبح موضع ثقة الصوماليين ومرجعا لهم . فلم يكن غريبا أن يرجعوا إليه فى هذه المشكلة . وأن يسألوه رأيه فى نشاط بعثات التبشير ، وفى

تفسير تلك المادة من اتفاقية الوصاية التي تنص على حرية دخول بعثات التبشير ومباشرة نشاطها فى البلاد ...

وفى اجتماع بنواب الصومال ، قال كمال الدين صلاح لهم : « إن تطبيق هذه المادة معلق بشرطين : الأول أن لا يكون فى ذلك ما يخشى منه على الأمن ، والثانى أن لا يكون فيه عدوان على معنويات الشعب ... وقيام المبشرين بالطعن فى الإسلام بين شعب دينه الإسلام، هو عدوان على معنويات الشعب ، كما أنه أمر يهدد الأمن ، إذ قد يؤدى إلى شر كبير إذا حدث اعتداء على هؤلاء المبشرين من بعض المتعصبين الغاضبين لدينهم .

« ورأيى الشخصى فى تفسير هذه المادة هو أنه إنما أريد بها أن لا يترك الأمر للإدارة الوصية ، فتقصر حق الدخول على البعثات الكاثوليكية كما كان الحال فى الماضى . وإن نشاط البعثات وحريتها فى العمل إنما هو منصب على اتباع مذهبها وليس على تنصير المسلمين . فليس من حق أحد ، ولا الأمم المتحدة نفسها ، أن تفرض على شعب ما أن يقبل الاعتداء عليه فى عقيدته الدينية ، ويرضى بذلك ، فى سبيل التسامح الدينى ! » .

وبعد ذلك بأيام ، كانت الإدارة تتهم كمال الدين صلاح بأنه تدخل فى شئون البلاد الداخلية وتجاوز حدود مهمته ، بتصريحاته هذه للنواب ، وبتحريضه الشريف محمود عبد الرحمن رئيس الرابطة الاسلامية على مهاجمة المشروع بعد خطبة الجمعة، مع أن فى منح المبشرين أراضى زراعية واسعة فائدة محققة للبلاد ...

ورد كمال الدين صلاح قائلا :

ـ إننى غير مسئول عما قاله الشريف محمود عبد الرحمن . ولست ممن يدفعون الناس إلى الكلام ويستترون خلفهم ، فأنا دائما أقول بنفسى ما أرى من واجبى قوله ، فى حدود اختصاصى ، وأتحمل مسئوليته . . . أما حديثى مع النواب فليس سرا . وقد كان حاضرا أكثر من عشرين من نواب مختلف الأحزاب وفى مقدمتها حزب الحكومة . وأنا لم أهاجم الحكومة أو حتى أنتقدها ، ولم أحرضهم على خذلانها . ولكننى فسرت لهم مواد اتفاقية الوصاية ، مما يعد فى صميم عملى وواجباتى . وأنا أمارس عملى فى الصومال بمقتضى هذه الاتفاقية ، فإذا أثيرت إشكالات حول بعض موادها ، فأنا من أول الناس الذين يحق لهم التصدى لتفسيرها .

ولم يسكت مورديكر . فبعد أن تعذر عليه شراء الأرض بدأ يستأجرها ، ويقيم المبانى التى تحتاج إليها بعثات التبشير . وبدأ يدفع فى الإيجار وما إلى ذلك مبالغ هائلة لم تعرفها الصومال قبل ذلك قط .

وكتب كمال الدين صلاح يسجل ملاحظتين هامتين :

الأولى : أن كل بعثات التبشير والشركات والهيئات الأمريكية التى تعمل فى الصومال تخضع لإشراف ورئاسة سفير الولايات المتحدة فى العاصمة الحبشية أديس أبابا ، التى تعتبر الآن نقطة الارتكاز الأولى لأمريكا فى قلب إفريقيا . وأن سفير الولايات المتحدة فى أديس أبابا كان فى الأصل قسيسا من رجال التبشير .

والثانية : أن كل البلاد التى اختارتها بعثات التبشير لممارسة نشاطها تتركز فى منطقة معينة . . . منطقة تنقب فيها الشركات الأمريكية للبترول !

فإلى هذا الحد يبدو الموقف بجلاء : إن بعثات التبشير لا تبتغى هنا وجه الله ! إنها تعمل عملا متناسقا مع خبراء النقطة الرابعة ، ومندوبى شركات البترول ! . .

بقشيش .. للجيش :

فى أحد أيام اكتوبر ١٩٥٤ ، كتب الأستاذ كمال الدين صلاح خطابا إلى مصر يقول فيه :

السيد المحترم وكيل وزارة الخارجية . .

توجه الأستاذ عقيل سليم السكرتير الثالث بمكتب مصر ، مساء يوم الاثنين الماضى ومعه حاجب المكتب إلى مصلحة البريد بمدينة مقديشيو لاستلام البريد الرسمى الوارد من الوزارة . وبعد أن تسلمه طلب استلام خطاب مسجل باسمه شخصيا ، فأجابه موظف البريد قائلا : « أنت مسلم ، وعليك التوجه إلى الشباك الخاص بالأهالى لاستلام خطابك منه » . وأشار بيده إشارة مهينة إلى طريق هذا الشباك ، وهو يقع خارج المكتب الذى تسلم منه البريد الرسمى . وهذا المكتب مخصص للأجانب فقط ، وبعبارة أصح للإيطاليين ، لأن الأجانب غير الإيطاليين فى مقديشيو قليلون .

وقد أبدى الأستاذ عقيل استياءه من هذه المعاملة . وتوجه بالكلام إلى رئيس مكتب البريد وطلب استلام الخطاب الخاص به . ولما أصر على أن لا يبرح المكان حتى يتسلم خطابه ، سلموه الخطاب بعد مناقشة قصيرة . وعاد الأستاذ عقيل بعد ذلك مباشرة لمقابلتى وسرد لى تفاصيل الحادث .

وبعد يومين توجهت بنفسى إلى مكتب البريد . وتحقق لدى أنه قد خصصت نافذة ذات قضبان حديدية تقع فى نهاية الشرفة التى تحيط ببناء مكتب البريد . وسألت الموظف الجالس خلفها وهو صومالى ، فقال لى إن هذا المكان مخصص لبريد الأهالى .

وقد علمت من بعض الصوماليين أن أحد المستشارين فى المجلس الإقليمى — وهو ما يقوم مقام الهيئة النيابية حاليا — سبق أن أثار أمر هذه المعاملة المهينة لأهالى البلاد .

وقد رأيت من واجبى أن لا أدع هذا الحادث يمر دون لفت نظر الإدارة الإيطالية إلى ما فى هذه المعاملة من تمييز دينى وعنصرى بين طوائف الناس . وأن ذلك يخالف مبادئ ميثاق الأمم المتحدة كما يخالف

نصوص اتفاقية الوصايا التى عهد بمقتضاها إلى إيطاليا فى إدارة الصومال حتى سنة ١٩٦٠ .

ممثل مصر
فى المجلس الاستشارى للأمم المتحدة للصومال
كمال الدين صلاح

قد يبدو هذا الحادث بسيطا فى ظاهره . ولكنه ليس بسيطا فى مغزاه على الإطلاق . إن الاستعمار كما يريد أن يجرد الشعب الرازح تحتـه من دينه وشخصيته وذاتيته ، يريد أيضا أن يسلب منه كرامته . يريد أن يربيه تربية خانعة تقنعه أنه جنس أقل فى مستواه من الجنس الدولة المستعمرة . مظهر بسيط كهذا : شباك بريد للأجانب وشباك آخر فى الطريق للوطنيين ، كاف لكى يشعر الصومالى أنه ذليل فى بلده . وأنه أقل فى طبيعته من مستوى الأجناس الأخرى الأوروبية . . .

ومن أجل هذا المغزى العميق ، قرر كمال الدين صلاح أن يخوض معركة من أجل هذا الحادث الصغير ...

لقد طلب عقد المجلس الاستشارى للأمم المتحدة . وكان رئيسه فى تلك الدورة هو مندوب الفلبين . وأعطى الرئيس الكلمة لكمال الدين صلاح الذى تكلم قائلا :

— إنه لا يخطر على البال أن يكون هناك أى تميز عنصرى فى بلد تحت الوصاية ، تهيئه الأمم المتحدة للحصول على استقلاله بعد بضع سنوات . وإننى أعتقد أنه يجب على الإدارة الوصية التى عهدت إليها الأمم المتحدة بهذه المهمة ، أن تلاحظ أولا وقبل كل شىء وجوب تطبيق المبادئ الرئيسية لميثاق الأمم المتحدة فى هذه البلاد .

وقال رئيس المجلس : إنه يتفق مع مندوب مصر فى أن أى تميز من أى نوع ، يعتبر مخالفة لنص وروح ميثاق الأمم المتحدة واتفاقية الوصاية نفسها ، وإن كل نظام فيه تميز يجب إلغاؤه .

وذهب رئيس المجلس ليقابل الحاكم الإدارى ويبلغه قرار المجلس. وخرج من لدى الحاكم الإدارى ، وقد اشتعل هذا الأخير بالغضب ..

ودعا الحاكم الإدارى مندوب مصر لمقابلته . وقال الحاكم الإدارى له إن وجود مكتب بريد مستقل للوطنيين ليس تميزا عنصريا ، غاية ما فى الأمر أن البريد يخصص شباكا للبريد باللغة

اللاتينيـة وشباك للبريد الوارد باللغة العربيـة ، من باب التسهيل على الموظفين .

ورد كمال الدين صلاح عليه بأن هذا غير صحيح . فخطاب الأستاذ عقيل سليم كان مكتوبا بالحروف اللاتينية .. والتمييز الدينى والعنصرى واضح : فالمكان المخصص للأجانب مكتب فسيح نظيف منظم ، أما المخصص للأهالى فنافذة تقع فى نهاية الشرفة المطلة على الطريق العام . وهى ليست مخصصة المراسلات المكتوبة باللغة العربيـة ، بل إنهـا مخصصة للصوماليين والباكستانيين والعرب والهنود حتى ولو كانت رسائلهم مكتوبة بلغة إنجليزية أو فرنسية ...

وكان كمال الدين صلاح قد أحضر مجموعة من هذه الخطابات ، برهانا على ما يقول !..

وأحرج الحاكم العام وثار ثورة عارمة عند ما هدده كمال الدين صلاح بإبلاغ الأمر إلى وزارة الخارجيـة المصرية إذا لم يتغـير هذا الوضع . . .

وصاح الحاكم العام وهو يدق بيده على مكتبه : وأنا أيضاً سأحتج لدى حكومتى على مسلـكك ودفعك المجلس الاستشارى للأمم

المتحدة إلى التدخل فى أمور ليست من اختصاصه !

كان الحاكم محرجا . فهو لا يريد أن يتنازل عن كبريائه فيغير نظام البريد إجابة لطلب مندوب مصر . وهو لا يريد أن يكون مندوب مصر هو المدافع عن كرامة شعب الصومال والمطالب بمساواته مع سائر الشعوب . وهو فى نفس الوقت يشعر بضعف موقفه الذى ضبطه فيه مندوب مصر متلبسا بخرق ميثاق الأمم المتحدة خرقا صريحا . . .

واستمرت المعركة ، وكمال الدين صلاح صامد فى مكانه فى لجنة الأمم المتحدة يصمم على تغيير النظام ، حتى عثرت الإدارة الإيطالية على المخرج المنشود : أن تنتهى فرصة سفر الحاكم العام بالإجازة ، فتغير نظام البريد ، فلا يكون الحاكم العام هو الذى غير رأيه ورضخ . . .

بذلك أبلغ الوزير اسبينللى سكرتيرعام الإدارة كمال الدين صلاح ، واعتبرت الأزمة منتهية . . .

***

حادث بسيط كما قلت . ولكنه يلقى الضوء على عقلية الاستعمار . إنه — حتى فى الأمور الصغيرة — يهتم بأن يبقى الشعوب المستعمرة فى فى حالة من التخلف النفسى والانكسار . . حالة من المذلة أساسها

أنهم جنس أقل من الجنس النازى المحتل . . .

صورة أخرى من صور هذا الأسلوب ، نجدها فى قصة « البقشيش » الغريبة ، التى شهدها كمال الدين صلاح . . .

كان ذلك عندما دعاه الحاكم العام الإيطالى ليصحبه فى جولة فى أنحاء الصومال . وركب كمال الدين صلاح الطائرة مع الحاكم العام وحاشيته . . . وقبيل وصول الطائرة إلى بلدة بلدوين بحوالى عشرين دقيقة همس السكرتير الخاص للحاكم فى أذن كمال الدين يرجوه أن ينسحب من المقصورة ليتمكن الحاكم من تغيير ملابسه . ولما عاد بعد ذلك إلى المقصورة وجده واقفا فى وسطها يرتدى زياً عسكريا من التيل الأبيض موشى بالذهب ويمسك بيسراه سيفا مدلى من حمائله ، وعلى رأسه قبعة عليها شريط أحمر موشى بالذهب ، كتلك التى يضعها كبار القواد العسكريين ، إنه الزى العجيب الذى سبق أن تهكم عليه مندوب كولومبيا فى مجلس الوصاية ، وقال إن الحاكم العام صممه لنفسه بنفسه تقليدا لزى المارشال تيتو ، إذ كان قبل ذلك وزيرا مفوضا لبلاده فى يوغوسلافيا ! !
وعندما هبطت الطائرة نزل منها الحاكم العام ، وتبعه قائد

القوات المسلحة ، واستعرض حرس الشرف وجوقة الموسيقى التى كانت فى الانتظار ، ثم توجه الجميع إلى معسكر القوات المسلحة ، حيث قامت القوات باستعراض ، ثم رقى اثنين من الصوماليين إلى رتبة ملازم ثانى . وبعد ذلك طلب الكولونيل ماسيولى بصوت مسموع من سكرتير الحاكم أن يعطيه « البقشيش » فأعطاه مظروفا مغلقا . وعند ذلك وقف الحاكم فى وسط المنصة وإلى يمينه الكولونيل ما سيولى وفى يده المظروف يلوح به . وصاح بصوت عال موجها الكلام إلى الجنود « إن صاحب السعادة قد سر غاية السرور من هذا الاستعراض ، وقد تبرع بمبلغ خمسمائة صومالى (حوالى ٢٥ جنيهاً مصرياً) منحة لكم » فتقدم الضابط الصومالى الذى رقى منذ دقائق ، يركض مسرعا نحو المنصة فأدى التحية العسكرية واستلم البقشيش ، ثم أدى التحية العسكرية مرة أخرى وعاد ركضا إلى مكانه الأول ... كل هذا حدث وجموع الشعب المحتشدة حول الاستعراض ترى وتسمع !

تأملوا هذه الصورة جيدا ... وضعوها إلى جانب الصورة السابقة ، صورة التفرقة فى مكتب البريد : الحاكم الإيطالى ، يلبس ثيابا مزركشة

مزخرفة مذهبة . إنه ليس وحده فى هذا ، فمن السهل أن نلاحظ أن الحاكم العام الأجنبى فى آسيا أو إفريقيا كان دائما يلبس ثيابا مزخرفة مزركشة مذهبة ، لا يمكن أن يلبسها فى بلده الأوروبىّ، وذلك لإلقاء الوهم فى نفوس الإفريقيين... ثم إذلال الضباط والجنود بإعطائهم «البقشيش» الذى لا يعطى إلا للخدم والتابعين ، على هذه الصورة المهينة ...

ومرة أخرى . رأى كمال الدين صلاح أن هذا خرق خطير لمبادئ الأمم المتحدة ولأهداف الوصاية . ومرة أخرى قرر طرح المسألة على المجلس الاستشارى للأمم المتحدة لاتخاذ قرار فيها . . .

وانعقدت الجلسة . وروى كمال الدين صلاح ما رآه ، وما عرفه من تقليد منح البقشيش على هذا النحو إلى القوات المسلحة على مرأى من الشعب . وقال لأعضاء المجلس إن هـذا التصرف خرق خطير لروح اتفاقية الوصاية ونصها وما تهدف إليه من تهيئة هـذا الشعب للاستقلال سياسيا ، وما فى ذلك من إهانة لكرامة الضباط والجنود .

وافق مندوب كولومبيا بحماسة على هـذا الكلام . أما العضو الثالث ، وهو مندوب الفلبين فقد تردد قليلا ، وقال إنه ربما كانت هذه العادة متبعة فى بعض البلاد ... فأكد له كمال الدين صلاح أنها غير

متبعة فى أى بلد . واستشهد بسكرتير المجلس ، وهو ضابط فرنسى سابق ، وعمل كثيراً فى المستعمرات ، فقال الضابط السابق إن هـذه العادة غير موجودة فى أى جيش من جيوش العالم . . .

واتفق المجلس على استنكار هذا التصرف . . .

على أن المجلس عند ما انعقد فى الجلسة التالية ، كانت هناك أمور قد حدثت فى الخفاء . فقد قال سكرتير المجلس إن هناك رغبة فى تغيير محضر الجلسة السابقة . وأيد مندوب كولومبيا هـذا الطلب وتردد مندوب الفلپين مرة أخرى . إذا فالحاكم العام والإدارة الإيطالية قد قاما بضغط عنيف لدى الأعضاء ، ولدى الحكومات ، لكى ترفع هذه الحكاية من محضر الجلسة ، ولكى ينفض مجلس الأمم المتحدة يده من هذه التصرفات . . .

وفى هـذه المرة ، سجل كمال الدين صلاح في محضر الجلسة كلاما عنيفا :

ــ . . إذا ، فما هى نوع النصيحة أو المساعدة التى يقدمها المجلس لإعداد هذا الشعب للاستقلال ، إذا لم ينصح بأن سياسة منح البقشيش علنا لأفراد الهيئات الحكومية أمر لايتفق مع أهداف الوصاية ؟ . . . إن هذا التصرف يضعف معنويات الشعب ، ويتنافى مع الكرامة

والاعتداد بالنفس الواجب توفرهما لشعب نعمل على تهيئته للاستقلال .
إنه ليؤسفني حقاً أن يسجل هذا في محضر الجلسه . وإنني أود أن ألفت نظر زملائي إلى أننا سوف نغادر هذه البلاد بعد زمن قصير أوطويل ، ولكن مثل هذا التصرف سيترك أثرا مستمرا في تكوين الشعب وإعداده لكي يحكم نفسه بنفسه . . .

ورفعت الجلسة بلا نتيجة . ولكن كمال الدين صلاح ذهب إلى نائب الحاكم العام — وكان الحاكم العام قد سافر في الإجازة — الوزير اسبينللي . وشرح له رأيه في حكاية البقشيش فوافقه الوزير اسبينللي الذي كان يمثل عقلية أكثر تقدما وتحررا من الحاكم العام ، وافقه على رأيه ، ووعده بتغيير هذه العادة . . . وفي أول جلسة لمجلس الأمم المتحدة ، سجل كمال الدين صلاح أنه بوصفه مندوب مصر في المجلس الاستشاري قد قابل الوزير اسبينللي وحصل منه على وعد بإلغاء عادة إعطاء البقشيش ، وأن هناك طرقا أخرى أشرف وأكرم في مكافأة موظفي الدولة وأفراد قواتها المسلحة ! . .

أحزاب .. لا قبائل

فى أثناء استعمار إيطاليا الفاشستية للصومال ، كان تكوين الأحزاب ممنوعا . فلما خرجت القوات الإيطالية من الصومال خلال الحرب العالمية الأخيرة ، وجاء الاحتلال الإنجليزى ، سمح الإنجليز للصوماليين بتكوين الأحزاب السياسية لأول مرة . . . فلما عادت إيطاليا سنة ١٩٥٠ لكى تكون وصية على الصومال مدة عشر سنوات ، وجدت هذه الأحزاب قد تكونت ، وأغلبها معاد لها ، فبدأت الإدارة الإيطالية تحاول تكوين أحزاب أخرى موالية لها ، تقاوم بها هذه الأحزاب ... حتى بلغ عدد الأحزاب الموجودة فى الصومال أربعة عشر حزباً . . .

وأكبر الأحزاب الأصلية فى الصومال ثلاثة : أولها حزب وحدة الشباب الصومالى ، وهو أكبر الأحزاب وأقواها وأكثرها تنظيماً ، ونفوذه منتشر فى أنحاء الصومال كلها ، ويليه حزب دغل ومريفله ، وهو حزب يعتمد فى نفوذه على القبيلة الكبيرة التى تحمل هذا الاسم ، ثم حزب شباب بنادر ، ونفوذه قاصر على المدن ، كما هو

واضح من اسمه إذ أن كلمة « بنادر » هى نفس الكلمة العربية التى هى جمع « بندر » ، أى عاصمة الإقليم . . .

وبالنسبة لموقف الإدارة الإيطالية من الأحزاب ، نجد أيضا نفس الخلاف فى داخل الإدارة . فهناك اتجاه متطور يمثله الوزير اسپينللى ثم الحاكم الإدارى العام الوزير « انزيلوتى » وهو يعترف بهذه الأحزاب ولا يكاد يعترف بسواها . واتجاه آخر أكثر نشاطاً وإلحاحاً ، يمثله الدكتور فرانكا ، رجل وزارة المستعمرات الفاشستية القديم . كان الدكتور فرانكا ينفذ سياسة بالغة الخطورة تريد تقسيم البلاد لا على أساس الأحزاب ، بل على أساس القبائل . كان ـ مثلا ـ يحرص على إذكاء روح المنافسات والخصومات بين القبائل ، فبذلك تظل الإدارة فى مركز ممتاز ، إذ تستطيع أن تضرب هذه القبيلة بتلك ، أو تميز قبيلة لتكيد قبيلة أخرى . كذلك فإنه عمد إلى تأليف أحزاب صغيرة على أسس قبلية ، كل حزب يمثل قبيلة ، وكان يغذيها بالمال والتوجيه ، ليخدم نفس الغرض ، وليمزق وحدة الشعب الصومالى . . .

هذه السياسة التدميرية ، لا يخفى أثرها على مستقبل الشعب الصومالى . فالنعرة القبلية من أتعس النعرات التى تؤخر نضج الشعوب ونموها . ورجل الاستعمار القديم يعرف أن رسالة الاستعمار الأولى هى

العمل على تأخير المجتمعات المستعمرة ماديا ومعنويا ، لا العمل على تقدمها . فالدكتور فرانكا بهذه السياسة كان يدمر رسالة الأمم المتحدة ، ورسالة الوصاية ، التى تقوم على دفع المجتمع الصومالى إلى الأمام . . .

وعند ما اقترب موعد إجراء أول انتخابات لأول مجلس نيابى فى الصومال ، وهو الجمعية التشريعية ، بدأ الدكتور فرانكا يتم خطته لتمزيق البلاد قبليا ، ولتوجيه ضربة ساحقة إلى نظام الأحزاب بالمعنى الحديث . . . فأعد قانونا للانتخاب يعطى أغلبية المقاعد للقبائل ، ويجعل الانتخابات على درجتين ، بحيث يتم الانتخاب فى المرحلة الأولى على أساس قبلى محض ، فالناخبون يختارون شيوخ قبائلهم فى أول درجة ، وشيوخ القبائل ينتخبون النواب فى ثانى درجة .

ومرة أخرى يقف كمال الدين صلاح عقبة فى طريق رجل الاستعمار الفاشستى القديم . فهو ينتهز فرصة انعقاد الدورة الرابعة عشرة لمجلس الوصاية ويثير هذه المسألة ، ويطالب بأن تكون الانتخابات كلها على درجة واحدة . وإذا تعذر هذا فى بعض المناطق القليلة النائية فلتكن الانتخابات على درجتين فى هذه المناطق فقط . ووافق مجلس الوصاية على هذا الرأى وأصدر قرارا يوصى فيه بأن تعمل الإدارة على

تعميم الانتخاب المباشر فى جميع أنحاء البلاد ، بأسرع وقت ممكن .

وتحركت الأحزاب للعمل ، ودارت اتصالات ومفاوضات متصلة بين الإدارة والأحزاب ، حتى استقر الرأى على تكوين الجمعية التشريعية من سبعين عضوا .. عشرة يمثلون الأقليات الأجنبية (العرب والإيطاليون والباكستانيون والهنود) وستون يمثلون السكان الأصليين . وكان الحل أن تتم الانتخابات فى المدن على درجة واحدة وفى الأقاليم على درجتين بشرط أن يكون التمثيل على أساس عدد الأفراد لا عدد القبائل ...

وفى فبراير ١٩٥٦ أجريت الانتخابات . وكانت الأحزاب قد دخلت المعركة أول الأمر بلا برامج ، ولكن حزب وحدة الشباب أسرع فنشر أول برنامج انتخابى ، نص فيه على الأهداف الآتية :

١ ـ تحرير جميع الصوماليين فى الوطن الصومالى الكبير .

٢ ـ الدين الإسلامى هو دين الدولة الرسمى .

٣ ـ تأييد قيام جبهة وطنية مع سائر الأحزاب .

٤ ـ الصومال جزء من العالم العربى والإسلامى .

٥ ـ اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة وهى لغة التعليم فى المدارس ...

وقد بذل الدكتور فرنسكا مجهودا كبيرا فى محاربة حزب وحدة الشباب بالذات ، لأنه كان يتوقع أن يكون حزب الأغلبية ، فأراد أن لا يكون هناك حزب واحد يتمتع بأغلبية حاسمة ، حتى يظل أمامه مجال المضاربة بين الأحزاب مفتوحا . . .

ولكن حزب وحدة الشباب ، خصوصا بعد أن أعلن برنامجه ، اكتسح المعركة . ففاز بثلاثة وأربعين مقعدا من الستين مقعدا التى تنافست عليها الأحزاب . . وفاز حزب دغل ومريفة بثلاثة عشر مقعدا ، والحزب الديمقراطى الذى ترعاه الإدارة الإيطالية بثلاث مقاعد . . وأحزاب أخرى فازت بمقعد واحد . . .

هكذا تم تكوين أول مجلس نيابى فى الصومال . ولم تفلح محاولات الإدارة الإيطالية فى صبغه بالصبغة القبلية المتأخرة ، ولم تفلح فى قهر حزب وحدة الشباب الصومالى بالذات . أما الأحزاب التى خلقتها خلقا صناعياً ، ثم وحدتها فى حزب أسمته الحزب الديمقراطى بوجيه « إدموندو » ، فقد منيت بهزيمة منكرة . ولم يكن هناك مفر بعد ذلك من تشكيل الوزارة من حزب الأغلبية . فتولى رئاسة الوزارة السيد عبد الله عيسى ، أحد أعضاء حزب وحدة الشباب . وتولى رئاسة الجمعية التشريعية السيد آدن عبد الله زعيم وحدة الشباب فى ذلك الوقت . وعين مستشار

إيطالى فى كل وزارة . واحتفظت الإدارة الإيطالية بسلطتها الكاملة فى شئون الدفاع وشئون السياسة الخارجية ...

وقد اقترن انتخاب الجمعية التشريعية وتشكيل الوزارة الصومالية بتغير مفاجىء فى سياسة الإدارة الإيطالية . فقد كانت هذه الإدارة تماطل فى إتمام عملية «الصوملة» أى وضع الصوماليين فى مختلف الوظائف الهامة حتى يتمرسوا على النهوض بها . ولكنها غيرت اتجاهها فجأة ، و بدأت تسرع فى عملية « الصوملة » .

ولم يكن معنى هذا أن الإدارة الإيطالية قد سلمت للشعب الصومالى بما يريد . ولم يكن معنى هذا أن القوى الأجنبية الأخرى قد كفت أيديها . كلا — لقد أجمع الكل، رغم خلافاتهم ، على ضرورة إخراج مصر أولا من هذه البلاد . أى إخراج كمال الدين صلاح .

فكيف يتخلصون منه ؟

هجوم شامل على مندوب مصر !

أول فكرة خطرت للإدارة الإيطالية للتخلص من كمال الدين صلاح ، كانت : التخلص من مجلس الأمم المتحدة كله ! فبذلك لا يبدو أنها تريد التخلص من شخص بالذات ، أو دولة بالذات .

وتكوين الجمعية التشريعية ، والوزارة الصومالية ، هو المناسبة التي حددتها الإدارة الإيطالية للعمل على ذلك... أما المنطق الذي يمكن أن تستند إليه فهو : أن إيطاليا قد أصبحت الآن عضوا في الأمم المتحدة. وتكوين وزارة صومالية ومجلس نيابي صومالي معناه أنه لا لزوم لوجود مجلس استشاري للأمم المتحدة هنا . فالوزارة الصومالية تستطيع أن تراقب الإدارة الإيطالية ، و إيطاليا بعد أن أصبحت عضوا في الأمم المتحدة أصبح من الممكن محاسبتها على ما تصنع في الصومال ..

ولم تضيع الإدارة وقتا ...

فقد جاء إلى الصومال لكي يحضر افتتاح الجمعية التشريعية وفد إيطالي من وزارة الخارجية الإيطالية ، كما جاء على نفس الطائرة

مسيو بنيامين كوهين مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة لشئون الوصاية ... وفى اليوم التالى لوصولهم ، تحدث مسيو كوهين مع كمال الدين عن تطور الأحوال فى الصومال وسيره نحو الحكم الذاتى والاستقلال ،وأبرز بصفة خاصة أنه قد طرأ تغيير جوهرى بقبول إيطاليا عضوا فى الأمم المتحدة ، وأنه من الصعب بعد ذلك استمرار بقاء مجلس الأمم المتحدة هنا . وبعد ذلك بيومين ، كان كمال الدين يتحدث مع المركيز فرا كاسى مدير إدارة الصومال فى وزارة الخارجية الإيطالية ، فلاحظ أنه يحاول جس النبض لمعرفة وجهة نظره فى الموضوع . كان المركيز لبقا وحريصا فى كلامه . وسأله عن رأيه فى وضع المجلس الآن ، وعما إذا كان مسيو كوهين قد فاتحه فى الأمر ، فأجابه بأنه قد فعل . وأنه يريد أن يعرف رأيه صراحة فى هذا الموضوع .

وقال المركيز فرا كاسى : إننا لم نعد أى أفكار محددة . ولا نريد أن يكون فيما نطلبه من تغيير أى إساءة إلى الأمم المتحدة أو أى جرح لشعور أحد ، فقال له كمال الدين : « إن وجود المجلس الاستشارى هنا جزء من نظام الوصاية على الصومال ، والأمر ليس متروكا للدول الأعضاء فيه فقط ، إنما الأمر كله من اختصاص الجمعية العامة للأمم المتحدة » .

وفى مساء نفس اليوم ذهب المسيو كوهين إلى بيت كمال الدين صلاح يزوره . وفى هذه المرة تحدث إليه عن فكرة إلغاء مجلس الأمم المتحدة فى الصومال بحماسة وصراحة . . . وكانت الاعتبارات التى استند إليها هى :

أولا : أن الفكرة من قيام المجلس الاستشارى هى كفالة نوع من الرقابة على الإدارة الإيطالية فى الصومال ، خصوصا وأن إيطاليا لم تكن عند ما بدأت الوصاية عضوا فى الأمم المتحدة . ولكنها أصبحت الآن عضوا فيها ، ومن حقها أن تطلب معاملتها على قدم المساواة مع الأعضاء الآخرين المنتدبين لإدارة أقاليم أخرى موضوعة تحت الوصاية ، بدون وجود مجالس استشارية للأمم المتحدة .

ثانيا ـ إن فى الصومال الآن جمعية تشريعية منتخبة ، سوف تعرض عليها كل مشروعات القوانين . فلا معنى إذا لوجود المجلس الاستشارى لنظر هذه المسائل ما دام أهل البلاد أنفسهم سوف ينظرون فيها .

ثالثا ـ إن الصومال الآن محتاج إلى مساعدة الأمم المتحدة له بالخبراء الفنيين لا بالمجالس الاستشارية . . .

واتصلت المناقشة فى تلك الليلة طويلا بين المسيو كوهين و بين

كمال الدين صلاح . فلما انصرف مسيو كوهين السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة ، كان شعور كمال الدين واضحا واقتناعه كاملا : إن التخلص من وجود مصر فى هذه المنطقة من إفريقيا هى الرغبة التى يتلاقى عندها الجميع .. إنجليز وفرنسيين وأمريكيين وإيطاليين وأحباش ! وها هو واحد من هيئة السكرتارية العامة للأمم المتحدة يشترك فى ذلك .

وشمر كمال الدين صلاح عن ساعده ليخوض هذه المعركة الجديدة . فالدول الطامعة هذه المرة تريد التخلص من كل رقابة عليها لتغدو تلك البلاد الصغيرة الناشئة فريسة سهلة أمامها ...

وكانت الحجج التى أدلى بها كمال الدين صلاح لدفع هذه المحاولة قوية قاطعة :

أولا ـ إن قيام المجلس التشريعى المنتخب ليس فيه تغيير جوهرى للأوضاع ، فسلطات هذا المجلس محدودة وقاصرة . فهو لا يملك طرح الثقة بالوزارة ولا إسقاطها . كما أن للحاكم حق الاعتراض (فيتو) على أى قانون يقره المجلس ، وبهذا يوقف تنفيذه . ثم إن أى عضو لا يملك التقدم بمشروع قانون للمجلس دون الحصول على موافقة الحاكم عليه مقدما .

ثانيا — إن الحكومة الصومالية تضم فى كل وزارة من وزاراتها مستشاراً إيطاليا له سلطة كبيرة . فلا يمكن أن يقال إن السلطة قد انتقلت بالفعل من أيدى الإدارة الأجنبية إلى أيدى أبناء البلاد .

ثالثا — إن قيام جمعية تشريعية منتخبة تقوم بصياغة الدستور وتكون لها سلطات تشريعية كاملة ، ونقل السلطات إلى حكومة صومالية مستقلة مطلقة السلطات قبل انتهاء فترة الوصاية بسنة ونصف على الأقل ، وهو أمر نصت عليه اتفاقية الوصاية ، ولم يحدث بعد . . . كان واضحاً للجمعية العامة للأمم المتحدة عند ما وافقت على الاتفاقية ، ومع هذا لم تر الجمعية العامة أن ينتهى عمل المجلس الاستشارى عند هذا التاريخ . . . بل رأت أن يستمر قائما فى الصومال إلى أن يصبح استقلاله حقيقة واقعة فى سنة ١٩٦٠ . فكيف يقال اليوم بإنهاء مهمة المجلس ؟!

رابعا — إن مهمة المجلس الاستشارى كما حددتها الجمعية العامة ليست مجرد الموافقة أو عدم الموافقة على ما تعرضه الإدارة الإيطالية . إنما مهمته أيضا تقديم المشورة والعون طبقا لنص المادة الثانية من اتفاقية الوصاية ، وإذا كان المجلس يقدم المشورة للإدارة الإيطالية القديمة

العهد . . . أليس من الأهم أن يقدم مشورته للإدارة الصومالية الحديثة العهد والتجربة ؟

خامسا ـ إذا صح القول بأن الصومال الآن قد أصبح لديه برلمانه وحكومتـه وأنه ليس فى حاجة إلى مشورة أو توجيه من المجلس الاستشارى . . ألا ينطبق نفس المنطق على الإدارة الإيطالية نفسها ؟.. ولماذا لا تنسحب الإدارة الإيطالية مع المجلس الاستشارى ، وتترك البلاد لأهلها ؟ !

وفشلت الخطة التى طافت بحلم الدول الـكبرى . وبقى المجلس الاستشارى فى الصومال . . .

فماذ يصنعون ؟ . .

لا مفر إذا من توجيه الحملة إلى مندوب مصر شخصياً . . .

ولـكن هذه الدول لا تريد أن تهاجمه علنا ومباشرة . فالأفضل أن توجه أحد الصوماليين أنفسهم إلى شن هـذه الحملة . فمن يصلح لهذه المهمة ؟..

لا أحد ! سوى الرجل المفضوحة علاقته بالإدارة الإيطالية . . والذى غير دينه تبعا لمصالحه أكثر من مرة . لا أحـد سوى محمد شيخ عثمان..الشهير باسمه الذى حمله فى إحدى مرات تغيير دينه :إدموندو !..

لقد كتب إدموندو ـ بوصفه سكرتيرا عاما للحزب الديمقراطى ـ عريضة إلى لجنة العرائض فى مجلس الوصاية بالأمم المتحدة يشكو فيها مندوب مصر فى اللجنة الاستشارية ، ويتهمه بأنه يتدخل فى شئون الصومال السياسية والاقتصادية على نحو يخالف الأساس الذى كلفته به الأمم المتحدة . ويتهمه بأنه يسعى إلى ضم الصومال إلى مصر أو على الأقل إلى إدخالها جامعة الدول العربية . . . ثم قال إنه يحتج على ذلك لدى الأمم المتحدة ، ويطالبهـا بالتدخل لمنع الدعايات الشريرة التى يقوم بهـا كمال الدين صلاح « حتى لا تقع الصومال فريسة لحـكم مصر ! ! » .

كان أول رد فعل لدى كمال الدين صلاح عنـد ما قدمت هذه العريضة ، هو : أنها من عمل الدكتور فرانـكا . . .

فإدموندو هذا هو عميله القديم . والحزب الديمقراطى الذى يمثله ، والذى هزم هزيمة ساحقة فى الانتخابات ، هو الحزب الذى صنعه الدكتور فرانـكا . والعريضة قد قدمت إلى الأمم المتحدة بعـد عودة فرانـكا من إجازته فى إيطاليا بأيام . ثم إن النغمة التى تنطوى عليها هى نفس النغمة التى يضرب عليها فرانـكا :

مصر تريد أن تستولى على الصومال !

مصر تريد أن تضمها إلى الجامعة العربية !

كمال الدين صلاح يتدخل فى شئون الصومال الداخلية ...

ولكن كمال الدين صلاح لم يكن يتصور أول الأمر كل القوى التى تؤازر هذه العريضة . وأنها أكبر كثيراً من الدكتور فرانكا !...

إن سكرتارية المجلس الاستشارى نفسها ، لم تكد تتلقى العريضة حتى اهتمت بها اهتماما غير عادى .. لقد طبعتها ووزعتها فى نفس اليوم ! وأرسلتها إلى المقر الرئيسى فى نيويورك فى أول بريد . ولم يكن هذا شأن السكرتيرية دائما ، خصوصاً بالنسبة إلى العرائض التى تقدم ضد الدكتور فرانكا ! والسكرتير الرئيسى للمجلس الاستشارى — بهذه المناسبة — هو المسيو دى لاروش ، الموظف السابق فى وزارة المستعمرات الفرنسية !

وليس هذا هو الدليل الوحيد على الأهمية الخارقة التى علقتها الدول الاستعمارية على هذه العريضة . .

لقد نشرت العريضة بنصها ، ومعها خريطة إيضاحية ، فى جريدة النيويورك تيمس . . أكبر الصحف الأمريكية نفوذاً !

ونشرت نفس العريضة — بخريطة أيضا ! — فى صدر جريدة

الديلى اكسبريس أكثر الصحف الإنجليزية انتشاراً وأكثرها استعمارية !.
وقرنت الديلى اكسبريس العريضة بالحملة على مصر وعلى جمال عبدالناصر وعلى كمال الدين صلاح . . . فى مقال بعنوان : رجل عبدالناصر يكشف أوراقه ! . . قالت فيه :

« إن دعاية عبد الناصر المعادية لبريطانيا فى الصومال قد ارتدت إلى أصحابها . لقد طلب الصوماليون (! !) إلى الأمم المتحدة نقل كمال الدين صلاح ، العضو المصرى فى المجلس الاستشارى بالصومال ، لأنه يتدخل فى حيـاة الصومال السياسية والاقتصادية . لقد جاء كمال الدين إلى الصومال البالغ الفقر ـ والذى يطل على المحيط الهندى إلى الجنوب من عدن ، بعد أن أصبحت موضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة .

« والوصاية تقوم بها إيطاليا ، التى طردناها من الصومال خلال الحرب العالمية الثانية .

« وقد جاء مع كمال الدين عضو كولومبى وعضو فيليپينى . ولـكن كمال الدين أحضر معه جهازاً للدعاية من وزارة عبد النـاصر للإرشاد القومى . ثم أرسل رجال الدعاية هؤلاء لـكى يخدعوا زعمـاء القبائل ويغرونهم بالانضمام إلى الجامعة العربية كما أنه منع الخمسة وثلاثين مدرساً مصرياً من قبول أبناء الساسة المحليين كتلاميذ عندهم إلا إذا كان

آباؤهم يميلون إلى مصر . وقدم ٣٠٠ منحة دراسية فى الجامعات المصرية لأبناء الزعماء الذين ينضمون إلى فكرة الاتحاد مع مصر . وهو — أخيراً — يلقى فى المساجد خطباً ضد الإنجليز !

« فماذا كان رد الفعل فى تلك البلاد التى يسكنها مليون ونصف من الرجال الممشوقى القوام والنساء ذوى العيون الجذابة ؟ لقد أرسلوا إلى الأمم المتحدة يقولون : « انقذونا ! إن هذا الرجل سوف يفسد عقول أبنائنا ! انقذونا من دكتاتورية مصر المُقَنَّعة ! »

« إن الدبلوماسى المحترف كمال الدين ، أحد رجال عبد الناصر الذين ينفذون سياسته التوسعية ذات الثلاث شعب الموجهة ضد انجلترا: الأولى نحو أوغندا عن طريق السودان ، والثانية نحو كينيا عن طريق الصومال ، والثالثة على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر نحو عدن !».

« ولكن يجب أن نعترف أن هذه العريضة المقدمة إلى الأمم المتحدة لا يؤيدها الصوماليون جميعا . ولماذا يؤيدونها . . إذا كانت القوى الغربية مازالت غير منتبهة إلى الصومال ؟ » .

انتهى مقال « الديلى اكسبريس » ! . .

وأعجب مافيه ليس الأكاذيب المتراكمة فى سطوره . وليس اعتبار البعثات التعليميـة المصرية تدخلا واستعمارا ، فى حين أن الضغط

السياسى والعسكرى الإنجليزى لا يعد استعمارا . إن أعجب ما فيه حقا هو هذا الفزع المستولى على الجريدة ، والذى صور لها أن هناك خطة مصرية ذات ثلاث فروع على وشك أن تستولى على الامبراطورية البريطانية فى قلب إفريقيا ! . . كل هذا من مجرد وجود مصرى فى الصومال ، يؤدى واجبه كممثل للأمم المتحدة ، ويعمل على دفع مؤامرات المستعمرين عن شعب الصومال ! . . .

ولم تقف الديلى اكسبريس عند هذا الحد . لقدواصلت حملتها على كمال الدين صلاح ، بمقال آخر ، كان عنوانه هذه المرة « عبد الناصر هناك أيضا ! ! » وقالت فيه :

« إن لورد لويد ، وكيل وزارة المستعمرات البريطانية ، قد انتقل من وكر لعبد الناصر إلى وكر آخر له . لقد كان وكيل الوزارة فى عدن ثم ذهب إلى الصومال البريطانى ، وهناك وجد المؤامرات المصرية ضد بريطانيا على قدم وساق . فبجوار الصومال البريطانى مباشرة ، توجد الصومال ، الموضوعة حاليا تحت وصاية الأمم المتحدة . وبعد أربع سنوات ، سوف تستفتى هذه البلاد بشأن مستقبلها . وهى قد تصوت من أجل الانضمام إلى جارتها البريطانية .

« ولكن هذا لا يلائم عبد الناصر . ومن هنا بدأ يعمل لكى

يبقى الصومال بعيدا عن النفوذ البريطانى ، وربما لا نتزاع الصومال البريطانى أيضاً .

« والمصيبة أن عبد الناصر يستخدم الأمم المتحدة لتحقيق أغراضه. فمصر لها ممثل فى مجلس الأمم المتحدة بالصومال ، وهو يهاجم انجلترا علنا . وتحت ستار مساعده الأمم المتحدة على إدارة هذه البلاد المتخلفة ، تحاول مصر أن تتسلل .

« إن على بريطانيا أن تدافع عن حقوقها . وأول خطوة هى أن تخرج انجلترا من هيئة الأمم المتحدة . إن هذه الهيئة تلحق أضرارا متوالية بمصالحنا الامبراطورية ، ومن الحماقة أن تؤيد انجلترا مثل هذه الهيئة ! » .

هكذا سقط القناع !

إن الديلى اكسبريس لم تستطع أن تصبر كثيرا على نغمتها الأولى، نغمة اتهام مصر بأن لها ميولا استعمارية فى إفريقيا . لقد وجدت أن أحدا لن يصدقها ، فانطلقت تعلن عن دوافعها الحقيقية : وزارة المستعمرات البريطانية . مصالح بريطانيا الامبراطورية . ضم الصومال إلى الصومال البريطانى ، والأمل فى أن يختار الشعب الصومالى الدخول فى الامبراطورية البريطانية . ثم الثورة العارمة ضد التطور العالمى كله ،

وعلى رسالة الأمم المتحدة كجزء من هذا التطور ! ...

إن الجريدة تطالب بالخروج من الأمم المتحدة ، لأن الأمم المتحدة تلحق أضرارا بالامبراطورية . فهى تريد إلغاء هذا البرلمان العالمى ، وتريد إلغاء القوانين الدولية التى تنص على تحقيق استقلال كل الشعوب. إنها تريد الرجوع إلى عالم القرن التاسع عشر . حيث كان الضمير الدولى واهيا ، والرقابة الدولية منعدمة ، والدول الكبرى كانجلترا تصنع إمبراطوريات واسعة من شقاء الملايين فى آسيا وإفريقيا ! ...

ومندوب مصر فى مجلس الأمم المتحدة بالصومال يقف عقبة فى طريق هذا كله ، إنه يمثل لها شبحاً هائلا يؤرقها ، هو شبح العالم الجديد . . عالم المساواة ، عالم بلا إمبراطوريات !

على أن هذه الضجة العالمية فى صحف انجلترا وأمريكا ، والتى أثيرت مع تقديم عريضة إدموندو ، كشفت عن المغزى الحقيقى لهذه العريضة ، وكشفت عن المحركين الحقيقيين لها . .

وقد كان رد كمال الدين صلاح على هذه العريضة حاسما إذ وقف يقول :
« . . . لقد كان فى استطاعتى أن أحتمى وراء عضوية المجلس الإستشارى وأمتنع عن الرد على هذه العريضة . ولكننى على العكس أرحب بمناقشتها ، ذلك أننى أعلم أنى أقف على أرض ثابتة ، وأن هذه العرائض المدبرة ،

ليس المقصود بها مهاجمة مصر فقط ، و إنما المقصود بها تضليل الشعب الصومالى ، و إبعاده عن أهدافه الحقيقية وتشتيت جهوده ، و إيجاد الفرقة بين أبنائه .

« هل مصر ومندوبها هى التى تخلق المشاكل وتسبب المتاعب فى الصومال ، أم هؤلاء العملاء الذين يسعون لتحقيق مصالح بلادهم ؟ إن مصر قد أرسلت علماء الأزهر والمدرسين بنـاء على طلب الشعب الصومالى ، أحزابه وزعماؤه وهيئاته المتعدده . فهل علماء الأزهر الذين يعلمون الصوماليين شئون دينهم هم الذين يخلقون المشاكل ؟! إذا فماذا عن هؤلاء القوم الذين جاءوا يستغلون اسم الدين المسيحى و يسيئون استغـلال الدين لإخراج الصوماليين من دينهم و إدخالهم فى دين جديد ؟ ! . إن الصومال ليس بلدا لا دين له حتى يأتى هؤلاء ليدخلوا أهله فى دين جديد .

« ثم هذا الاتهام المضحك ، الذى يقول إن مصر تحاول أن تضم الصومال إليها ! إن هذا الاتهام لا يستحق الرد ! ومع ذلك أقول إن مصر ليس لها حدود مشتركة على الصومال لتسعى لإدخاله فى اتحاد معها ، وليست لها محميات ولا مستعمرات مجاورة لتحاول إدماجه أو ربطه بها . فليسأل هؤلاء الذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف .

« ومع ذلك . . فهؤلاء الذين يزعجهم أن يرتبط الصوماليون بالشعوب العربيـة . . . كيف يبررون محاولاتهم المـكشوفة لربط الصومال بأوروبا وجعله لاتينيا فى لغته ودينه ومعيشته ؟

« لننظر إلى مقومات الصومال فى الموقع الجغرافى والجنس والدين واللغة . . سنجده شعبا إفريقيا يدين بالإسلام ، من الجنس السامى والحامى وتجاوره وتقع بالقرب منه شعوب شرقية وعربيـة . . فما هو الضرر وما هى المصيبة التى ستحدث للعالم لو ارتبط هـذا الشعب بالشعوب التى تجمعه معها روابط الجنس واللغة والدين والموقع الجغرافى والتاريخ المشترك ؟ ! » .

على أن أبلغ رد على هذه العريضة ، كان : عريضة أخرى قدمها السيد آدن عبـد الله باسم الجبهة الوطنية للأحزاب الصومالية صاحبة الأغلبية فى البلاد ، تستنكر عريضة إدموندو !

فماذا بقى من وسائل للتخلص من كمال الدين صلاح ، بعد أن فشل هذا الأسلوب أيضا ؟...

لم يبق سوى حل واحد جرئ ، فهل يقدمون عليه ؟

يجب محوه من الوجود

مرت سنة ، واثنتان ، وثلاث سنوات ...

لقد أدركنا سنة ١٩٥٧ ، وكمال الدين صلاح يحارب فى كل هذه الجبهات . والمتآمرون لم تفتر همتهم ، وهو بالمثل لم تفتر همته ، ولم تتعب عضلاته ...

إنه يكتب فى خطاب له إلى زوجته « .. إن بعض المسئولين هنا يتعمدون مضايقتى والإساءة إلى حتى تصبح إقامتى فى الصومال غير محتملة، وحتى يضطرونى إلى الرحيل بأى شكل ... » ولكنه على العكس لا ينسحب، بل تتضاعف قوته ، ويكفيه إذا كان بعض الرسميين يضايقونه ، إن أبناء الشعب الصومالى المخلصين يقدرون جهاده ، ويعتبرونه واحدا منهم ، وأحد الأعمدة التى يقيمون عليها مستقبلهم ...

إن كل المعارك التى ذكرناها ما زالت ، بعد ثلاث سنوات حافلة، محتدمة لا تخفت لها نار ... وفى مذكرات كمال الدين التى تبدأ مع سنة ١٩٥٧ ، نجد انعكاس كل هذه المعارك ...

إنه ما زال يطوف أنحاء الصومال و يتصل بالأهالى « ... قمت فى الفترة بين ٢ و ١٨ مارس سنة ١٩٥٧ بجولتين كبيرتين فى قلب الصومال ، بالسيارة الجيب و بالطائرة . لقد زرت كثيرا من المدن والقرى ، وجددت إتصالى بالأهالى وشيوخ البلاد ، وتعرفت على مدى حاجتهم إلى المعونة الثقافية . أنهم يريدون مساعدتهم على إتمام بناء المدارس البسيطة المتواضعة التى بدأوا فعلا فى تشييدها من أموالهم الخاصة رغم فقرهم ، و بتقديم الكتب الدراسية والمدرسين الذين يربون أبناءهم التربية العربية التى يرتضونها لهم » ...

وفى صفحة أخرى نجده يسجل ، متفائلا « .. تكونت فى العاصمة والأقاليم لجان من أهالى البلاد الوطنيين ، الذين يؤمنون بتقوية العلاقات بين الصومال والبلاد العربية ، وتقوم هذه اللجان بإنشاء مدراس أهلية أطلق عليها اسم « المدرسة الوطنية النموذجية » . إن هناك الآن مدرسة فى مقديشيو سيكون بها فى أول العام القادم أربعة عشر فصلا للبنين والبنات ، ومدرسة فى جلكاعيو ستضم أحد عشر فصلا ، وثالثة فى كيسمايو ستضم تسعة فصول ، ورابعة فى بندر قاسم ستضم سبعة فصول ، وخامسة فى بلدوين وستضم أربعة فصول . وهذه المدارس يتولى أعضاء البعثة المصرية التعليم فيها . فضلا عن قيامهم

بالتعليم فى المدارس التابعة للأحزاب . إن هـذه المدارس تسجل نجاحا باهراً ، وتجذب إليهـا أغلب التلاميذ ، بسبب تعلق الشعب بالتعليم العربى واللغة العربيـة ، وانصرافهم عن اللغـة الإيطالية التى يجرى التدريس بها فى سائر المدارس » . . .

وفى مارس ١٩٥٧ فوجئ الناس ذات يوم بجريدة « الـكوريرى ديلاصوماليا » ، الجريدة الوحيدة اليوميـة فى الصومال ، والتى تصدرها الحـكومة ، فوجئ الناس بها وقد نشرت صفحة كاملة من صفحاتها باللغة الصومالية ، مكتوبة بحروف لاتينية . كان واضحا أن هذه محاولة جريئة لتدعيم الإتجاه إلى عدم استعمال اللغة العربية ، التى طالب بهـا الشعب . وكان كمال الدين غائبا فى ذلك الوقت عن العاصمة فى رحلته فى الأقاليم . فلما عاد وجد الرأى العام ثائرا لهذا التحدى لإرادته ، وقد دعت الجبهة الوطنية للأحزاب إلى اجتماع لبحث الأمر واتخاذ قرار فيه . واتخذت الأحزاب التى حضرت الاجتماع قرارا باستنـكار هـذا العمل من جانب الحـكومة والاحتجاج عليـه . وأرسلت الاحتجاجات إلى الحـكومة ، و إلى الإدارة الوصية ، وإلى الحـكومة الايطالية فى روما ، وإلى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك ، وإلى المجلس الإستشارى فى مقديشيو .

وقد رأى حزب وحدة الشباب ـ لأنه حزب الحكومة ـ أنه ليس فى اللائق أن يحضر هذا الاجتماع المشترك للأحزاب الذى شنت فيه الحملة على الحكومة . على أن مجلس إدارة الحزب اجتمع وبحث الموضوع واتخذ قرارا بأغلبية ساحقة باستنكار تصرف الحكومة ومطالبتها بالعدول عن هذا الاتجاه ، وتوجيه خطاب إليها بذلك . وقد وقعت أزمة عنيفة بين الوزارة والحزب انتهت بنزول الحكومة عند رأى الحزب ورغبات الشعب ، و بتعهد الحكومة بأن تكف عن موالاة النشر فى صحيفتها باللغة الصومالية والحروف اللاتينية (١) .

والعدوى تنتشر ! ففى فبراير ١٩٥٧ ، يصل إلى مقديشيو وفد يمثل الجبهة المتحدة لأحزاب الصومال الإنجليزى . وقد جاءوا إلى الصومال بإيعاز من الإنجليز ، وتحت إشراف القنصل الإنجليزى ، ليثيروا فى الأذهان فكرة العمل على اتحاد الصوماليات ضمن الكومنولث البريطانى . ولكنهم عندما يختلون بكمال الدين صلاح فى بعض الحفلات . . يقولون له : إن أهالى الصومالى الإنجليزى

---

(١) قرر حزب وحدة الشباب بعد ذلك بشهور العمل على كتابة اللغة الصومالية بحروف ليست عربية وليست لا تينية ... وما زالت المسألة قيد البحث .

مازالوا يذكرون بالخير أيام المصريين ، ويرددون تاريخها لأولادهم . . وإن الآثار التى خلفها المصريون فى بربرة كالمساجد وفنار الميناء الذى تعطل أخيرا مصباحه المتحرك واستبدله الإنجليز بمصباح ثابت ، وغيرها من أعمال المهندسين المصريين ، مازالت قائمة تنطق بكفاية المصريين ، وبمقدار ما نفذوه هناك من مشاريع عمرانية . وقال له السيد أحمد حسن رئيس الوفد : إنه عندما وقع العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى على مصر أصاب أهل المحمية حزن شديد ، وعندما تعطلت إذاعات القاهرة أصابتهم حيرة . وكانوا يرفضون الاستماع إلى إذاعة عاصمتهم « هرجيسة » أو إذاعة لندن ، وجعلوا يستمعون إلى إذاعات الخرطوم ودلهى . وقد أوفد الإنجليز عملاءهم فى شتى أنحاء البلاد لمعرفة شعور الأهالى ورد الفعل الذى نشأ عن العدوان على مصر ، فعادوا يقولون إنهم وجدوا الشعب كله رجالا ونساء مع مصر بقلبه وعواطفه . وأخيرا أبدى له أعضاء الوفد رغبتهم فى الحصول على مدرسين مصريين لتعليم أولادهم ، وقالوا إنهم سوف يجسون نبض الإنجليز لمعرفة مدى تقبلهم لمثل هذه الفكرة .

ولمثل هذا السبب ، تستمر حملة الصحف الإنجليزية ! فتكتب « الإيكونوميست » هذه المرة ـ فى عدد ١٦ فبراير ١٩٥٧ ـ قائلة :

« إن الصومال الإنجليزى والصومال الفرنسى لن يرضيا بالبقاء تحت الحكم الأجنبى عندما تستقل جارتهما الكبيرة ، الصومال ». وهذا ما يكشف عن حقيقة عواطف الإنجليز نحو استقلال الصومال ! ثم تهاجم المجلة حزب وحدة الشباب ، وهو حزب الأغلبية الحاكم ، وتصفه بأنه حزب عدوانى .. بل وتهاجم مستر « بيفن » وزير الخارجية البريطانية السابق ، لأنه خلال وزارته كان راضيا عن هذا الحزب الذى تكون أيام الاحتلال الإنجليزى ! ثم تذكر المجلة فى أسى أن الصوماليين عندما يحتاجون إلى مساعدة يفضلون البلاد العربية ، وأن الاتجاه الطبيعى للصومال بعد الاستقلال سيكون نحو الجامعة العربيـة .. ثم تطالب فى نهاية مقالها بأن يعمل الغرب على الاحتفاظ بهذه المنطقة موالية له ! ...

ويكتب كمال الدين خطابا إلى زوجته يقول لها فيه .. « .. يظهر أن الإنجليز وحلفاءهم لا يهدأ لهم بال ، ويداومون على تدبير المكائد لنا . وقد أصبح واضحاً أنهم يريدون التخلص منى شخصيا ! . . »

ويتفاقم الخلاف بين الأقوياء هناك حول قضية هامة ، هى قضية الوحدة : فانجلترا تريد أن يتحد الصومال مع صومالها ليكون المستقبل فى تلك البلاد للكومنولث . والحبشة تعمل على أن يتحد الصومال معها كما اتحدت إريتريا من قبل . ومن وراء الحبشة تقف أمريكا ،

التى تنقب عن البترول فى منطقة الحدود بين الحبشة والصومال ، فاتحاد الصومال مع الحبشة سيكون فى صالحها . . .

ويتقرر عرض قضية الحدود على الدورة التى سيعقدها مجلس الوصاية فى نيويورك فى أبريل ١٩٥٧ ويقرر كمال الدين صلاح السفر فى أوائل أبريل إلى نيويورك مندوبا عن المجلس الاستشارى ليشرح وجهة نظر المجلس ، أى وجهة نظر الشعب الصومالى .

ولم يكن قد بقى على موعد السفر سوى أيام ، عندما كان كمال الدين صلاح عائدا إلى بيته يوم ١٧ مارس ١٩٥٧ ، فهجم عليه شاب صومالى فى يده سكين طويل ، ظل يطعنه ؛ حتى سقط على الأرض مضرجا بدمائه !

. . . .

من أين جاء هذا الشاب القاتل ؟ ...

هل أقدم على هذا العمل من تلقاء نفسه ، أم دفعه إليه أحـد ؟

هنا تتوقف مذكرات كمال الدين صلاح . لقد أسلم روحه بمجرد وصوله إلى المستشفى ، فلم يعد قادرا بعد على أن يروى القصة ، ويحلل لنـا الأسباب ، بالدقة والوضوح والبساطة التى تعودناها من مذكراته وخطاباته ...

ولـكن القاتل نفسه يتكلم . و بين يدينا نص التحقيق الرسمى الذى أجرته النيابة العامة الإيطالية والبوليس .

إن القاتل محمد شيخ عثمان ، شاب فى حوالى الثلاثين من العمر . وصفه محضر التحقيق بأنه أسمر برونزى اللون ، نحيف طو يل ، حاد الطبع . كان طالبا فى إحدى البعثات الصومالية بمصر خلال سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، ولـكن طباعه الشاذة جعلت زملاءه أعضاء البعثة يضيقون به ، و يسعون لإعادته إلى بلاده . بل إنهم أرسلوه ، بصحبة قنصل إيطاليا فى مصر ، إلى أحد الأطباء النفسيين الإيطاليين فى مصر ، فوصفه هذا الطبيب بأنه ذو نفسية سر يعة التحول . ثم انتهى الأمر إلى إلغاء بعثته و إعادته إلى الصومال .

وفى الصومال عاش فى بلدته « بيضوا » حياة غير موفقة ، محوطة بالضنك والقلق .. وفى إحدى المرات ثار فجأة أثناء مناقشة له مع أحد موظفى مكتب التلغراف بالبلدة ، فطعنه بخنجر كان فى يده . وجرح موظف التلغراف ، وحكم على محمد شيخ عثمان بالحبس شهر ين ...

وكان القاتل إلى جانب ذلك عضوا فى حزب دجل ومرفله . .

وفى أول تحقيق أجرته النيابة مع القاتل اعترف بجر يمته . وروى القصة كاملة ، فقال : إنه كان فى بلدته بيضوا عندما أرسل إليه أحد تجار

البلدة ـ واسمه الحاج محمد عمر المخزومى ـ يقول له إنه كان فى العاصمة مقديشيو ، وإن عبد القادر آدن سكرتير عام حزب دجل ومرفله طلب منه أن يخبره بأن يذهب إلى العاصمة فورا ويقابل عبد القادر آدن لأنه يريده فى أمر شديد الأهمية ...

وترك محمد شيخ عثمان بلدته وسافر إلى العاصمة يوم ١٠ أبريل .

وفى يوم ١٤ أبريل ، التقى بعبد القادر آدن سكرتير عام حزب دجل ومرفله وعبد الله مرسل نائب رئيس الحزب . وصحبه الاثنان فى سيارة عبد القادر آدن وانطلقا يتحدثان معه . قالا له : لقد دعوناك من أجل مصلحة عليا للحزب . فنحن نريد أن تتحول الصومال إلى اتحاد فيديرالى بين ولايات ، مما يعزز شأن النظام القبلى . ولكن كمال الدين صلاح يؤيد حزب وحدة الشباب الذى يريد دولة واحدة مستقلة . فلا بد من محو كمال الدين هذا من الوجود ، إذ طالما هو موجود فى الصومال لا يمكن أن يتم مشروع الاتحاد الفدرالى . ولا بد أن يتم التخلص منه بسرعة ، قبل أن يسافر فى نهاية الشهر إلى نيويورك حيث سيمثل المجلس الاستشارى أمام مجلس الوصاية بالأمم المتحدة أثناء مناقشة مشكلة الحدود بين الصومال والحبشة . . .

ثم طلبا منه ـ كما قال ـ صراحة أن يقوم هو باغتيال كمال الدين .

وقالا له : إن القانون الحالى فى الصومال ليس فيـه عقوبة إعدام ، ثم دفعا له ٢٠٠ شلن صومالى مقدما ، ووعداه بأن يدفعا له بعد إتمام الجريمة مبلغ ٣٠ ألف شلن صومالى . . . وكان محمـد شيخ عثمان قد ارتاب فى إمكانهما دفع هذا المبلغ الـكبير ، فسألهما من أين لهما بهذا المبلغ ... فقالا له : إن ضابط الاتصال الحبشى اتفق معهما على تمويل نشاط الحزب نظير تعاون الحزب معـه فى العمل .

وكانت الخطة التى اقترحها النائبان عبد القادر آدن وعبد الله مرسل ـ كما قال القاتل ـ هى أن يذهب إلى الاحتفال الذى كان حزب شباب بنادر سيقيمه فى مساء الغد ، إذ كان مقرراً أن يلقى كمال الدين صلاح خطبة فيهـا . فإذا تمـكن من اغتياله فى أثناء الحفلة والفرار وسط الزحام فعليه أن يرتـكب جريمته ، وإذا لم يتمكن فإنه سيتمكن على الأقل من معرفة كمال الدين صلاح ـ ولم يكن القاتل قد رآه قط ـ ليذهب إليه فى بيته ويغتاله فى اليوم التالى . . .

وفى اليوم التالى أرسل محمد شيخ عثمان قريباً له اشترى له خنجراً طويلاً . وذهب فى المساء إلى حفلة حزب شباب بنادر ، وألقى كمال الدين صـلاح كلمته . ولـكن القاتل لم يتمكن منـه فى تلك الليلة ، فخرج إلى مقر حزبه ـ دجل ومرفله ـ حيث التقى مع عبد القادر آدن

وعبد الله مرسل ، وركب معهما السيارة مرة أخرى إلى بار « فيات » حيث جلسوا قليلا ، ثم إلى شارع الليدو ، حيث أشار عبد القادر آدن إلى بيت كمال الدين صلاح لكى يعرفه القاتل . . .

وفى صباح اليوم التالى ، ذهب محمد شيخ عثمان إلى بيت كمال الدين صلاح فلم يجده ، وانتظره وعرف أنه خرج قاصداً القنصلية المصرية ، فذهب إليها ، ولما لم يكن كمال قد وصل فقد لبث ينتظره حتى قدم . .

تلك هى الرواية الكاملة التى أدلى بها القاتل أمام النائب العام .

و بناء على هذه الأقوال ، ألقى النائب العام الإيطالى القبض على النائبين عبد القادر آدن وعبد الله مرسل . .

ولكن القاتل عاد فعدل عن أقواله جميعا . . وقال إن أحدا لم يحرضه ، وإنه ارتكب الجريمة بمفرده ! . .

ثم عاد القاتل فعدل عن عدوله هذا ، ورجع إلى أقواله الأولى واتهام النائبين . .

فهل هذان النائبان حقا . . مذنبان ؟

إن هناك شكوكا كثيرة تحيط بالموضوع . .

إن السيدة أمينة صلاح زوجة الشهيد كمال الدين صلاح لا تصدق اتهامهما ، فقد كانا من أعز أصدقاء زوجها . .

وهذان النائبان بالذات كانا من أشد معارضى الإدارة الإيطالية فى الفترة الأخيرة . . .

فهل هناك تلفيق من الإدارة الإيطالية ضد النائبين ؟ . .

لقد اقترن بوقوع الجريمة عدة ظواهر غريبة . . .

الجندى الواقف أمام الباب ، حيث ارتكبت الجريمة لم يتحرك لإنقاذ الشهيد ولم يتحرك للقبض على القاتل . إنما قبض على القاتل خدم وموظفو القنصلية المصرية . . .

وكانت العادة أن يتغير جندى الحراسة هذا كل يوم ، ولكن هذا الجندى بالذات لم يتغير طوال الأيام الثلاثة التى سبقت وقوع الجريمة ، والتى كان القاتل قد وصل إلى العاصمة فيها و بدأ يستعد لا نتهاز فرصة يرتكب فيها جريمته . . .

وحالة الطوارئ أعلنت لسبب غير مفهوم صباح يوم ارتكاب الجريمة . أى قبل وقوعها بساعات . .

وقد حكمت المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة على القاتل ، و ببراءة النائبين ؟ . . .

فمن هو المسئول الحقيقى عن قتل كمال الدين صلاح ؟ . . .

إنه ما زال مطلق السراح . . فى الصومال وفى كثير من أركان إفريقيا . إنه الاستعمار ! . . .

مَن القاتل ؟

لا يهمنا كثيراً أن نقف عند تحقيق النيابة ، أو أن نتابع جلسات المحكمة ، لنعرف من الذى قتل كمال الدين صلاح . . .

إن الذى قتله أكبر من الشاب الأسمر الطويل . وأكبر من النائبين اللذين قال القاتل إنهما حرضاه . وأكبر من الذين أعطوه النقود . . .

لقد راح كمال الدين ضحية استراتيجية عالمية واسعة . والذى قتله هو : الإستعمار فى إفريقيا . . .

لقد تحدث أحد الكتاب الأوروبيين عن إفريقيا فقال إنها « قديمة كأبى الهول ، جديدة كاليورانيوم ! » . نعم ، ففى إفريقيا أقدم ما احتاج إليه الإنسان فى بناء حضارته ، عند ما زرع وادى النيل فى مصر ، وفيها أحدث ما يحتاج إليه الإنسان فى القرن العشرين ، وهو : اليورانيوم الثمين . . .

والاستعمار العالمى يعلق أمل استمرار حياته على إفريقيا .

فلأنها ما تزال أكثر مناطق العالم تأخراً، ولأن ثرواتها ما تزال عذراء، ولأن الاستعمار قد تقلص فى آسيا، والشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، فهو يريد أن تكون قلعته الأخيرة فى قلب إفريقيا ...

الدول الاستعمارية تلتقى عند رغبة واحدة، هى أن تستثمر هذه القارة بأرخص ثمن. منها من يعتقد أن أرخص ثمن هو أن يبقى سكانها متأخرين، حفاة عراة. ومنها من يعتقد أن هذا مستحيل، وأن أرخص ثمن لاستثمارها هو إعطاء سكانها بعض المكاسب والتحسينات المادية، مع تجريدهم فى نفس الوقت من مقوماتهم الأساسية ... ولكن الجميع يلتقون عند نتيجة واحدة، هى: أن أهل إفريقيا لا يمكن أن يكونوا مستقلين حقا. استقلالاً كاملاً. كأى شعب آخر فى أى قارة أخرى . . .

أصدرت مجلة « لايف » الأمريكية فى إحدى المرات عدداً خاصا عن إفريقيا. كتب فيه ثلاثة من أبرز الأمريكيين الذين زاروا إفريقيا، هم: الأديب أرنست همنجواى، والسياسى إدلاى ستيفنسون، والصحفى جون جنتر . . . فماذا قالوا ؟

قال همنجواى :

« كانت هـذه القارة هادئة عندما قدمنا نحن الغربيون إليها . فالمواطنون يعيشون فى انسجام مع طبيعة القارة ، أما الأجنبى فإنه يفسد كل شىء : يقطع الأشجار ، ويغير مجرى المياه ، ويحول الغابات العذراء إلى أراض زراعية سرعان ما تصبح كأى أرض زراعية فى أى مكان آخر من العالم !

« إن كل بلد قد خلقت لتبقى كما هى ، وعلى طبيعتها ، وما نحن سوى فضوليين !

« إننى أحب الحياة فى هذه القارة . فهناك يمكننى أن أصيد الطيور والأسماك . وعندما تسير بى السيارة ليلا يشع الضوء فى عيون الغزلان التى تجلس متجمعة على الرمال ، حتى تقترب منها السيارة فتنهض فى ذعر متكاسل .. إنك تحس هناك بأن العالم قد كف عن الدوران ، وإن الدنيا كلها تنتظر ببابك ! »

وقال ستيفنسون :

« إن هذه القارة الواسعة الممتدة حوالى خمسة آلاف ميل غير مستقرة الأحوال . فى الشمال حيث مراكش وتونس والجزائر ، ثارت الأغلبية العربية على حكم الأقلية الفرنسية . وفى الجنوب تحكم أقلية أوروبية وهى فى خوف دائم من أن تكتسحها الأغلبية الإفريقية .

ومن الواضح أن المشكلة ستبقى ما دام الإفريقيون يصممون على اكتساب حريتهم كاملة وإتاحة فرص اقتصادية لهم .

« وفى المناطق المزدحمة بالسكان البيض مثل كينيا وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا ، ينظر الإفريقيون بشراهة إلى الأراضى الجيدة التى يحتفظ بها الأوروبيون . ولقد حكى لى أحد المبشرين عن ذلك الإفريقى الذى قال له بكل صراحة : عندما جاء الأوروبيون كانوا يملكون الإنجيل وكنا نحن نملك الأرض .. أما الآن ، فقد أعطونا الإنجيل وأخذوا منا الأرض !

« وأثناء إقامتى فى إفريقيا لم أحس بأى عداء نحو البيض ما عدا تلك الشرذمة الإرهابية من الماوماو فى كينيا ، عندما قتلوا طفلين بريئين من الإنجليز ...

« والإفريقيون لا يثورون فقط من أجل المشاكل السياسية والإقتصادية ، إنما من أجل التفرقة العنصرية أيضا . فالإفريقى سرعان ما يكتشف أنه لا يستطيع تسلق السلم إلا إلى درجة معينة . وأنه حتى ولو أوتى كل مواهب العالم لا يستطيع أن يحقق لنفسه نفس المستوى الاقتصادى والاجتماعى للرجل الأبيض » .

وكتب جون جنتر يقول :

« إن أفريقيا يسكنها ١٩٨ مليون نسمة ، بينهم خمسة ملايين فقط من الأوروبيين . ومن الواضح أن ١١ ألف من البيض فى نيجيريا مثلا لايمكن أن يمنعوا إلى الأبد ٣٠ مليونا من السود من الحصول على حريتهم . فإذا صمم هؤلاء على أن يصبحوا أحرارا ، فإن الرجل الأبيض الذى يحكم إفريقيا لن يعدوا أن يكون كذرات الملح الأبيض المبعثر على سطح هذه القارة الهائلة . . وهذا هو لب المشكلة الإفريقية .

« أن أكثر دول إفريقا مازالت تعيش تحت الحكم الاستعمارى لدولة أو لأخرى . ولكن إلى متى تبقى هذه الدول هناك ؟ ومن سيخلفها بعد ذلك ؟ . . . إن مستقبل الغرب كله يتوقف على الإجابة على هذه الأسئلة . . لأن إفريقيا تمتاز بموقع استراتيجى عظيم الأهمية . . فضلا عن أنها تضم فى أرضها نسبة هائلة من كنوز العالم كله . إن هذه القارة فيها ٥٥ ٪ من ذهب العالم و ٢٢ ٪ من نحاسه .. وأكثر مافيه من يورانيوم . هذه القارة سوف تصبح قريبا فى وضع يتيح لها أن تختار أى فريق تنضم إليه ، و بهذا يمكنها أن تغير ميزان القوى فى العالم كله » .

هـذا ماقاله الأديب والسياسى والصحفى ! . . نذكر عندما نقرأ كلامهم قول حاكم الكونغو البلجيكى مرة معبرا عن حيرته : « إن تعليم الإفريقيين خطر ، وعدم تعليمهم أشد خطورة ! » .

فهذه الكلمات تشرح موقف الغرب من إفريقيا فى بساطة وإيجاز! الغرب يخاف أن يجارى التقدم فى إفريقيا لأنه سيضطر فى هذه الحالة إلى التنازل عن كثير من امتيازاته.. ويخاف أن يقاوم التقدم فيتفاقم اندلاع النار، وقد يفقد إفريقيا كلها فى ضربة واحدة ...

ولنتأمل ما قالوه بالتفصيل ...

إن همنجواى يأتى إلى إفريقيا كما يأتى السائح، أو الرجل الذى يبحث عن مغامرة. إنه «يحب إفريقيا».. يحب أن يرى فيها الغابات والعراة والغزلان التى تفزعها مصابيح السيارات.. أما إذا تحولت إفريقيا إلى شوارع ومصانع وكبارى وحقول مزروعه، فسوف تفقد جمالها فى عينيه!..

إنه يذهب إلى إفريقيا كما يذهب المرء إلى حديقة الحيوان مثلا، ليستمتع برؤية كائنات غير مألوفة لديه. وكما أنه لا بد أن يبقى سكان حديقة الحيوان فى أقفاص حتى نستمتع بمنظرها ولا نخشى بأسها، كذلك فإن أهل إفريقيا يجب أن يظلوا فى أقفاص من الجهل والفقر والتأخر حتى يستمتع السيد همنجواى بمنظرهم! أما إذا اصبحوا زراعا وصناعا ومثقفين كالذين يراهم فى الغرب.. فأى متعة إذاً يجدها فى إفريقيا؟...

أما ستيفنسون ، فقد وقف عند نقطة اعتبرها المشكلة الرئيسية فى إفريقيا وهى : أن البيض والسود لا يمكن أن يعيشوا جنبا إلى جنب . . .

ولكن من الذى خلق هذه المشكلة ؟ البيض أم السود ؟ الوافدون على إفريقيا أم الإفريقيون ؟

إن إفريقيا لم ترفض الهجرة إليها يوما . ولم نسمع عن شعب إفريقى كره أجنبيا قادما لمجرد أنه أجنبى . بل إنهم على العكس يطلبون مساعدته وخبرته . إنما تبدأ الكراهية عند ما يبدأ الأجنبى فى التحكم والاستغلال والسيطرة . . .

إن الإفريقيين فى اتحاد جنوب إفريقيا لا يطلبون طرد البيض ، إنما يطلبون المساواة فقط .

والخمسة ملايين إفريقى فى كينيا إنما يثورون لأنهم يرفضون أن يكونوا عبيدا لأربعين ألف من الأوروبيين . . .

ولكن الغربيين هم الذين يرفضون المساواة ، هم الذين يضعون قوانين التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا ، وفى كينيا ، وفى شمال إفريقيا . . .

وستيفنسون لايستطيع أن يلقى اللوم صراحة فى هـذه المشكلة على الإفريقين ، لأن الوقائع الصارخة لاتتيح له ذلك . ولـكن هذا لايمنعه من تسقط أصغر الأخطاء لهم . فهو مثلا يسجل جريمة « ارتـكبتها تلك الشرذمة الإرهابية من الماوماو الذين قتلوا طفلين بريئين من الإنجليز » . ولـكنه لايذكر أصل المشكلة التى أدت إلى ذلك . لايذكر الحرمان والفقر والبؤس والاستغلال ، ولا يذكر عدد الذين قتلهم الإنجليز من الرجال والنساء والأطفال . . .

كان برنادرشو يقول على سبيل الفـكاهة « إذا قتل الأسد رجلاً قلنا هذه وحشية ، أما إذا قتل الرجل أسداً فإننا نقول هذه رياضة ! » وكأن ستيفنسون يريد أن يقول : إن قتل الإفريقى للإنجليزى وحشية ، وقتل الإنجليزى للإفريقى حضارة !

وأخيراً . . . نجد أن جون جنتر قد ركز اهتمامه على لب الموضوع وهو : علاقة إفريقيا بالمعسكر الغربى . . .

أنه يحذر من « ضياع » إفريقيا . . . كما ضاعت آسيا .

فماذا يعنى بالضبط « ضياع » إفريقيا ؟ أغلب الظن أنه يقصد استقلالها ! فاستقلال إفريقيا فى رأيه ضياع لها . . . أى ضياع لها من قبضة الغرب !

إن جون جنتر يتكلم عن إفريقيا كما يتكلم الإنسان عن منجم يجب أن يمتلكه ، أو عن خط دفاع يجب أن يحتمى به ! . . ولكنه لا يتكلم عنها أبدا كشعوب تريد أن تستقل ، وأن تختار مصيرها ، وأن تعامل بلاده وتتبادل المصالح معها معاملة الند للند . . .

ليس لدى الغرب الشجاعة الكافية لمواجهة الحقيقة الجديدة ، وهى : أن هذه الشعوب لا يمكن أن تبقى إلى الأبد مجرد آبار لبتروله ومناجم لخاماته يملى هو شروط استثمارها . إنما هى بلاد يجب أن تكون مستقلة تماماً ، تكيف مصالحها وتعمل لحساب نفسها ، وهى بعد ذلك تحب أن تتعامل مع الغرب .ومع العالم كله ، تعاملا حراً شريفاً أساسه الاختيار والمساواة .

هذه هى المشكلة التى قتلت كمال الدين صلاح ...

فماذا نفعل نحن المصريين والعرب ، وغيرنا من أبناء إفريقيا وآسيا ؟ . . .

لا شىء غير ما كان يفعله كمال الدين صلاح : مزيد من النور ، يضىء أرجاء الغابة ، ويطرد الوحوش الكاسرة !

فهرس

للمؤلف

النقطة الرابعة	١٩٥٠
فاروق ملكا	١٩٥٢
أيام لها تاريخ	١٩٥٣
الثورات الكبرى (ترجمة عن نهرو)	١٩٥٤
شهر فى روسيا	١٩٥٥
مبادئ وأشخاص	١٩٥٦

